الفصل الأول

أ ـ شخصيّة ابن القيسراني
ب ـ موجبات اختياره .

شخصية ابن القيسراني

يقول عبد الكريم السمعاني ، وهو من معاصري ابن القيسراني وممن التقوا به ، حين يتحدّث عن الشاعر ، إنّه « أبو بكر عبد الله محمد بن نصر ابن صغير القيسراني »[1] . ويقول أبو يعلى حمزة ابن القلانسي عنه : « الأديب أبو عبد الله محمد بن نصر ، ويقال له ابن صغير القيسراني »[2] . ويصل ياقوت ابن القيسراني بخالد بن الوليد حين يقول عنه في معجمه : « محمد بن نصر بن صغير بن داغر ، أبو محمد بن خالد ، من ولد خالد بن الوليد ، الصحابي الجليل ، شرف الدين المخزومي ، المعروف بابن القيسراني الحلبي الأديب الشاعر »[3] . أما ابن خلكان فيقول : « أبو عبد الله محمد بن نصر ابن صغير بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر بن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد »[4] . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه « محمد ابن نصر أبو عبد الله العكاوي، ويقال له ابن صغير القيسراني »[5]، في حين

---

١ – كتاب الانساب : ٤٦٨ و (صورة عن مخطوط في المتحف البريطاني تحت رقم : Add . ٢٢ , ٣٥٥)

٢ – ذيل تاريخ دمشق ط بيروت ١٩٠٨ : ٣٢٢ .

٣ – معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون ، ١٩ : ٦٤ .

٤ – وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ، القاهرة ، ١٩٤٨، ٤ : ٨٢ .

٥ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغرى بردى الاتابكي ط وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ٥ : ٢١٣ .

يكتفي سبط ابن الجوزي بأن يقول عنه : « واسمه محمد بن نصر أبو عبدالله العكاوي ، ويقال له ابن الصغير »[1] . أما ابن العماد الحنبلي فيذكر أنه « أبو عبد الله ابن القيسراني ، محمد بن نصر بن صغير بن خالد »[2] .

ويبدو من مقارنة ما أوردته المصادر المختلفة الآنفة الذكر بعضه ببعض ، أن كلمة « بكر » التي أوردها السمعاني بين كلمتي « أبو » و « عبد الله » كلمة زائدة ، إذ إن كنية الشاعر هي « أبو عبد الله » في كل المصادر الأخرى تقريباً ، ولعله قد وقر في ذهن السمعاني ارتباط تاريخي ما بين اسم « عبدالله » وكنية « أبي بكر » لاجتماع الاسم والكنية معاً في الخليفة الراشدي الأول .

أما النعيمي صاحب « الدارس في تاريخ المدارس » فيختلف عن بقية المصادر اختلافاً جزئياً في اسم والد الشاعر . ففي حين أن هذه المصادر تسمي والد الشاعر « نصر » فإن النعيمي يسميه « نصر الدين »[3] .

على أن رفع نسب الشاعر إلى خالد بن الوليد كان موضع شك عند القدماء أنفسهم ، إذ يقول ابن خلكان بعد أن يرفع نسب الشاعر إلى خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه : « هكذا يزعم أهل بيته ، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون : إن خالداً رضي الله عنه لم يتصل نسبه ، بل انقطع منذ زمان ، والله أعلم »[4] . وفي كلمة « يزعم » التي أوردها ابن خلكان ما فيها من إيحاء بعدم تقبله لهذا الانتساب . ويدعم هذا الشك ما أورده صاحب « نسب قريش » من انقطاع نسب خالد بن الوليد[5] . كما لاحظ ذلك فاروق

---

١ – مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ط ١ ١٩٥١ ، حيدر آباد ، الهند ، ٨:٢١٣ .

٢ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ط بيروت ، ٤ : ١٥ .

٣ – الدارس في تاريخ المدارس تأليف عبد القادر محمد النعيمي ، بتحقيق جعفر الحسني دمشق ، ١٩٤٨ ص ٣٨٨ .

٤ – وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٩٤٨، ٤:٨٥ .

٥ – نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار الطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص٣٢٨ .

جرّار خلال حديثه عن نسب ابن القيسراني[1] .

ويلاحظ أن الشاعر قد نسب فيما سبق إلى « قيسارية » وإلى « حلب » وإلى « عكا » ، وقد نسبه صاحب « خطط الشام » كذلك إلى دمشق[2] ، ولا تناقض في ذلك ، إذا عرفنا أن حياة الشاعر قد ارتبطت ، كما سيتبين في الصفحات اللاحقة ، بهذه البلدان جميعاً .

١ – انظر « محمد بن نصر القيسراني ، حياته وشعره » ، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ص ٦١ .

٢ – خطط الشام تأليف محمد كرد علي ، مطبعة دار الترقي في دمشق ١٩٢٦ ، ٤ : ٣٦ .

موجبات اختياره

١ — العامل الزمني .
٢ — الارتباطات المكانية .
٣ — الروابط الشخصية .
٤ — الاحتكاك المباشر مع الصليبيين .
٥ — توافر المادة الشعرية .

أولاً : العامل الزمني

لم يكن اختيار ابن القيسراني لهذه الدراسة اختياراً عشوائياً ، بل كان مبنياً على مجموعة من الاعتبارات ، سنعالجها في الصفحات التالية ، مبتدئين بالعامل الزمني :

تقع حياة ابن القيسراني التي امتدت سبعين سنة ما بين عامي ٤٧٨ و ٥٤٨هـ. وثمة ما يشبه الاجماع على تاريخ ولادته ، إذ لا يخرج عن القول بأنه كان عام ٤٧٨ هـ إلا ابن العماد الحنبلي الذي يجعل هذا التاريخ عام ٤٨٧هـ[١] . ولكن نستطيع الجزم بأن ابن العماد كان واهماً أو انه قد وقع في سهو غير مقصود ، وذلك لأنه هو نفسه يذكر في صفحة سابقة من كتابه أن الشاعر توفي سنة ٥٤٨ هـ وأنه عاش سبعين سنة[٢] ، مما يحتم أن تكون ولادة الشاعر سنة ٤٧٨ هـ . ثم ان ابن العماد بعيد العهد بابن القيسراني زمنياً ، لأنه من أبناء القرن الحادي عشر الهجري ، في حين أن ابن عساكر الذي يورد سنة ٤٧٨ هـ تاريخاً لولادة الشاعر ، من معاصري ابن القيسراني ، وممن اتصلوا به فعلاً ، وهو ينقل سنة الولادة هذه عن الشاعر مباشرة[٣] .

---

١ – شذرات الذهب ج٤ ص١٥١ .

٢ – المصدر نفسه ص١٥٠ .

٣ – انظر ما نقله فاروق جرار في رسالة الماجستير ص ٦٣ عن تاريخ دمشق لابن عساكر المجلد ٤٠ رقم ١٠٤١ تاريخ ، دار الكتب المصرية في القاهرة .

أما تاريخ وفاة ابن القيسراني ، فقد اتفق عليه ابن عساكر وابن القلانسي[١] وأبو شامة[٢] وياقوت[٣] وابن خلكان[٤] وابن العماد الحنبلي[٥] واليافعي[٦] وابن كثير[٧] والنعيمي[٨] . وشذّ عن هؤلاء سبط ابن الجوزي الذي ذكر أن وفاة الشاعر كانت سنة ٥٤٧ هـ[٩] . غير أنّ هذا المؤرخ يعود فينقل عن ابن القلانسي أن الشاعر توفي سنة ٥٤٨ هـ[١٠] . ولا بد أن يكون ابن القلانسي أوثق من سبط ابن الجوزي مذ كان الأول منهما معاصراً للشاعر ، وذلك لأن ابن القلانسي توفي سنة ٥٥٥ هـ عن عمر يناهز التسعين عاماً[١١] في حين أن سبط ابن الجوزي توفي بعده بمئة عام تقريباً — سنة ٦٥٤ هـ[١٢] .

فاذا كانت هذه هي الفترة الزمنية التي امتدت عبرها حياة الشاعر ابن القيسراني ، فأية أهمية لذلك ، بالنسبة إلى الحروب الصليبية وما واكبها من أحداث واكتنفها من ملابسات ؟

---

١ — ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢ .

٢ — كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة ، ط القاهرة ١٩٥٦ ج١ قسم ١ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

٣ — معجم الأدباء ، ١٩ : ٦٥ .

٤ — وفيات الأعيان ، ٤ : ٨٥ .

٥ — شذرات الذهب ، ٤ : ١٥١ .

٦ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سلمان اليافعي ، حيدر أباد ، الدكن ١٣٣٧ هـ ج٣ ص٢٨٧ .

٧ — البداية والنهاية مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ج١٢ ص٢٣١ .

٨ — الدارس في تاريخ المدارس ج٢ : ٣٨٨ .

٩ — مرآة الزمان ج٨ ص ٢١٣ .

١٠ — مرآة الزمان ج٨ ص ٢١٤ .

١١ — انظر « العبر في خبر من غبر » للحافظ الذهبي ط الكويت ١٩٦١ ج٤ ص ١٥٦

١٢ — انظر صفحة العنوان في كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ط١ حيدر أباد١٩٥١

يمكن الأجابة عن هذا التساؤل بايراد مجموعة من الأحداث الهامة التي وقعت خلال هذه الفترة في نطاق الغزو الصليبي لبلاد الشام .

فعندما كان عمر الشاعر اثني عشر عاماً ، أي سنة ٤٩٠ هـ ، ابتدأت الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام[١] . وفي السنة التالية — ٤٩١ هـ — سقطت أنطاكية في أيدي الصليبيين ، وقتل هؤلاء عدداً كبيراً من أهلها[٢] ، وسقطت كذلك معرّة النعمان ، وقتل الصليبيون من أهلها مئة ألف في تقدير ابن الأثير[٣] .

وفي سنة ٤٩٢ هـ حصر الصليبيون القدس نيّفاً وأربعين يوماً ثم استولوا عليها وأكثروا القتل ، حتى إنهم قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ومن فارق الأوطان وجاور بذلك الموقع الشريف[٤] .

وحين كان الشاعر في السادسة عشرة من عمره ، احتل الصليبيون بلدة قيسارية وذلك سنة ٤٩٤ هـ[٥] .

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، أي عام ٤٩٧ هـ ، احتل الصليبيون عكا ، مسقط رأس الشاعر[٦] .

وفي سنة ٤٩٩ ، ظفر « طغتكين » صاحب دمشق بالصليبيين ، كما ظفر بهم مرّة أخرى عام ٥٠٢ هـ[٧] .

---

١ — ذيل تاريخ دمشق : ١٣٤ .
٢ — المصدر نفسه : ١٣٥ .
٣ — الكامل طباعة المطبعة الكبرى بمصر سنة ١٢٩٠ ج ١٠ ص١٠٣ .
٤ — الكامل ط القاهرة ١٢٩٠ ج١٠ ص١٠٥ ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
٥ — الكامل ط القاهرة ١٢٩٠ ج ١٠ ص ١٢١ .
٦ — ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ — ١٤٤ . الكامل ط القاهرة ١٢٩٠ ، ج ١٠ ص ١٣٩ .
٧ — العبر ج ٣ ص ٣٥٣ و ج ٤ ص ٣ .

وفي سنة ٥٠٣ هـ سقطت طرابلس في يد الصليبيين ، ثم تلتها بيروت وصيدا سنة ٥٠٤ هـ[١] .

وفي سنة ٥٠٧ التقى عسكر دمشق والجزيرة الفراتية مع عسكر الصليبيين بأرض طبريّة ، وكانت وقعة مشهورة انتصر فيها المسلمون[٢] . وفي سنة ٥١٨ سقطت صور بيد الصليبيين[٣] .

وتلا هذا المدّ الصليبي عملية انحسار شبه متصلة ، بعد أن شهد المشرق الإسلامي ردّة الفعل القوية الأولى للغزو الصليبي ، ممثلة في جهود عماد الدين زنكي ثم جهود ولده نور الدين محمود .

ففي عام ٥٢٩ استعاد عماد الدين المعرّة من الصليبيين ، وبعد ذلك بسنتين استعاد قلعة بعرين[٤] الهامة . وفي سنة ٥٣٤ هـ حاصر دمشق في محاولة منه لتوحيد الامارات الإسلامية في الشام للوقوف في وجه الصليبيين[٥] .

وفي سنة ٥٣٩ هـ حقق عماد الدين أكبر نصر أحرزه على الصليبيين حين استرد مدينة « الرّها » ، عاصمة أول إمارة للصليبيين ، مما ترك أثراً عظيماً في نفوس المسلمين من ناحية ، وحرّك من ناحية أخرى حملة صليبية ثانية من أوروبا إلى المشرق الإسلامي[٦] .

وفي سنة ٥٤١ هـ انتهز الصليبيون فرصة موت عماد الدين زنكي فاحتلوا

---

١ – الكامل ط القاهره ١٢٩٠ ج ١٠ ص ١٧٩ ، ص ١٨١ . العبر ج ٤ ص ٦ ، ص ٧ .

٢ – العبر ج ٤ ص ١٢ .

٣ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ . الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .

٤ – العبر ج ٤ ص ٧٥ ، ص ٨٤ . الكامل ج ١١ ص ٢١ .

٥ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ . كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٥ .

٦ – كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٤ . ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

الرّها ثانية ، ولكن نور الدين ، ولد عماد الدين ، سارع إلى المدينة واستخلصها منهم [١] .

وفي سنة ٥٤٣ هـ حاصر الصليبيون الوافدون من أوروبا بزعامة ملك الألمان ، بالتعاون مع الصليبيين المستوطنين في بلاد الشام مدينة دمشق ، ولكن أهل المدينة صدقوا الدفاع عنها ، وأعانهم نور الدين وأخوه غازي صاحب الموصل ، فانفضّ الصليبيون عن المدينة دون أن ينالوا منها [٢] .

وفي سنة ٥٤٣ هـ كذلك ، هزم نور الدين الصليبيين هزيمة كبيرة في مكان اسمه « يغرى » من أرض الشام ، وكاد بعد هذا الانتصار يأخذ أنطاكية نفسها [٣] .

وفي سنة ٥٤٤ هـ ، حاصر نور الدين دمشق في محاولة شبيهة بمحاولة أبيه ضمّ القوى الإسلامية في بلاد الشام ، وذلك بعد أن بلغه أن حكام المدينة يتعاونون مع الصليبيين ، إلا أن الأمر انتهى بينه وبين هؤلاء الحكام بصلح عام ٥٤٥ هـ [٤] .

وفي سنة ٥٤٤ هـ كذلك أحرز نور الدين انتصاراً عظيماً على الصليبيين في « إنّب » من أعمال أنطاكية واستولى إثر ذلك على عدد كبير من الحصون التابعة لها ، ثم نزل على المدينة نفسها إلى أن انتهى الأمر بمهادنة من فيها وتقرير أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له ، وما قرب من

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ . كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦ .الكامل ج١١ ص ٤٦ .

٢ – انظر في حصار دمشق هذا ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ – ٢٩٩ . كتاب الروضتين ج ٨ ص ١٩٦ وما بعدها . العبر ج ٤ ص ١١٧ وما بعدها . شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣٦ وما بعدها .

٣ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٤ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٤ وما بعدها .

٤ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٩ . مرآة الزمان ج٨ ص٢٠٦ .

أنطاكية لهم[1] .

وفي هذه السنة الحافلة بالأحداث استولى نور الدين على حصن « أفامية » وكان الصليبيون يغيرون منه على أعمال حماة وشيزر وينهبونها[2] .

وفي سنة ٥٤٥ هـ أسر نور الدين الأمير الصليبي « جوسلين » وتمكن بعد أسره من استعادة عدد كبير من البلدان والقلاع التابعة له[3] .

وفي سنة ٥٤٦ هـ ، حاصر نور الدين دمشق مرة أخرى لمعاضدة حكامها للصليبيين واستنصارهم بهم ، إلا أن الأمر انتهى مرة أخرى بالصلح ، بعد أن توجه حاكم دمشق إلى مقر نور الدين في حلب ، وبذل الطاعة له[4] .

وفي سنة ٥٤٧ هـ استعاد نور الدين انطرسوس من الصليبيين[5] .

* * *

من هذا الاستعراض الموجز للأحداث الكبيرة التي وقعت خلال حياة ابن القيسراني في بلاد الشام ، يستطيع المرء أن يتبيّن أن الشاعر قد سمع بأنباء الحملة الصليبية الأولى صبيّاً ، وأنه قد شرّد من بلده على يد الغزاة الصليبيين يافعاً ، وعاصر حركة التوسع الصليبي في المنطقة شاباً ، ثم شهد حركة البعث الإسلامي الممثّلة في قيادة عماد الدين ونور الدين القويّة رجلاً ناضجاً تجاوز الأربعين من العمر . وعندما قاربت رحلته في هذا العالم على

---

١ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص١٥٠ وما بعدها . الكامل ج١١ ص٥٨ وما بعدها .

٢ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص١٥٩ – ١٦٠ .

٣ – المصدر نفسه ص١٨٤ .

٤ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص٣١٤ – ٣١٥ . الروضتين ج١ ق١ ص٢٠٧ وما بعدها .

٥ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص٢١٥ .

الانتهاء كانت الشواهد كلها تشير إلى مدّ إسلامي حثيث ، مقابل انحسار صليبي حثيث . ومعنى ذلك أنه قدّر لابن القيسراني ابان سني حياته السبعين أن يشهد مولد الحركة الصليبية ، ثم اشتدادها واستفحالها ، وأخيراً ، تضعضعها وبداية انحسارها .

ثانياً : الارتباطات المكانية

إذا كان ما ورد في الصفحات السابقة يمثل محاولة لربط سنّي حياة ابن القيسراني بحوادث كبار وقعت ابّان الغزو الصليبي لبلاد الشام ، فإن الصفحات اللاحقة تمثّل محاولة لربط الأمكنة التي عاش فيها ابن القيسراني خلال مراحل حياته المتلاحقة بحوادث الغزو الصليبي وما انبنى عليها من أوضاع وآثار .

وثمة أربعة بلدان شاميّة ارتبطت أسماؤها باسم الشاعر ، وبأحداث الغزو الصليبي لبلاد الشام ، وتلك هي : عكا وقيسارية ودمشق وحلب ، مرتبة ترتيباً زمنياً متلاحقاً حسب ارتباطات ابن القيسراني بها . ومن هنا قيل عن الشاعر إنه عكاوي وقيسراني ودمشقي وحلبي[1]. وارتباط اسم الشاعر بهذه البلدان الأربعة لا يعني أنه لم يطوّف بغيرها من بلدان الشام والعراق ، وإنما يعني فقط أنه كان لهذه البلدان دور خاص في حياته .

مدينة المولد :

أمّا عكا ، المدينة الجميلة على الساحل الفلسطيني الشمالي ، فهي البلد الذي فتح الشاعر فيه عينيه على الحياة لأول مرّة . هكذا قال السمعاني وابن عساكر والعماد الأصفهاني وابن الجوزي وابن خلكان وأبو المحاسن يوسف

---

١ – انظر : ص ١١ سابقاً .

ابن تغري بردى[1] .

وقد كانت بلاد الشام بأسرها قبيل الغزو الصليبي مصطرعاً سياسياً وعسكرياً بين قوى السلاجقة التي كانت قد سيطرت على المشرق الإسلامي ودار الخلافة في بغداد ، وبين الفاطميين في مصر ، الذين كانت قبضتهم على بلاد الشام تشتدّ وتضعف حسب تقلبات الأمور والأحوال في مصر والشام على السواء . ولقد بلغ الأمر بابن الأثير ، أن ربط ما بين هذا التنافس بين السلاجقة والفاطميين على بلاد الشام ، وبين غزو الصليبيين الأول لتلك البلاد ، إذ اتهم أصحاب مصر العلويين في معرض سرده لأحداث سنة ٤٩١هـ بأنهم لما رأوا قوّة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام ، حتى لم تبق بينهم وبين مصر ولاية تمنعهم ، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى بلاد الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين السلاجقة[2] وابن الأثير نفسه ذكر لنا في تاريخه أن عساكر مصر خرجت إلى الشام عام ٤٨٢ هـ ، واستولت على عدد من مدن الساحل الشامي ، فيها « صور » و « صيدا » و « عكا » و « جبيل »[3] .

وأول عهد عكا بالصليبيين كان عام ٤٩٢ هـ، إذ إنّ الصليبيين الزاحفين إلى بيت المقدس ، بعد احتلالهم لانطاكية ، مرّوا بالمدينة بعد مرورهم بصور . وفي حين أن ابن الأثير يشير إلى ذلك اشارة عابرة في حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، حيث يذكر أنهم قد حصروا عكا ولم يقدروا عليها[4] ، فإن المراجع الصليبية

---

١ – انظر كتاب الأنساب ص٤١٨ وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني الكاتب – قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق ١٩٥٥ ج١ ص٩٦ . مرآة الزمان ج٨ ص٢١٣ . وفيات الأعيان ج٤ ص٨٥ . النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٠٢ ، وانظر كذلك رسالة الماجستير لفاروق جرار ص٦٣ .

٢ – الكامل ج١٠ ص١٠١ .

٣ – الكامل ج١٠ ص٦٥ .

٤ – المصدر نفسه ص١٠٥ .

تذكر أن حاكمها قد اتقى الصليبيين الزاحفين كما اتقاهم حاكم طرابلس ، باسترضائهم عن طريق تقديم المؤن لهم ، وتعهده بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[1] . وبعد احتلال الصليبيين للقدس ويافا ، أخذوا يهددون ممتلكات الفاطميين على الساحل الفلسطيني ، حين ظهر عجز الدولة الفاطمية عن حماية هذه الممتلكات . فلا غرو إذن ان نجد عامل الفاطميين على عكا ينضم إلى عامليهم في عسقلان وقيسارية في اعلان نوع من التبعية للصليبيين حكام بيت المقدس . ويبدو أن العامل التجاري كان له أثره في نوع العلاقات التي قامت ما بين دولة الغزاة الصليبيين في القدس ، ومدن فلسطين الساحلية[2] .

بيد أن الصليبيين لم يكتفوا بما حققوا من نفوذ على الساحل الفلسطيني ، إذ كانوا يريدون الاستيلاء على الساحل الشامي كله ، بالرغم من أنهم كانوا قد كاتبوا صاحبي حلب ودمشق وهم محاصرون لانطاكية بأنهم لا يقصدون غير البلاد التي كانت بيد الروم — الرّها وأنطاكية واللاذقية[3] — لا يطلبون سواها .

ويعقب ابن الأثير على مكاتبتهم تلك بقوله انها كانت مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية[4] . فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يهاجم ملك القدس الصليبي مدينة عكا عام ٤٩٤ بغية احتلالها ، ولكنه لم يوفق في ذلك . إلا أنه في سنة ٤٩٧ هـ ، وصلت مراكب من أوروبا إلى اللاذقية ، فاستعان بلدوين ملك القدس الصليبي بها لفتح عكا ، وبالفعل حصرت المدينة في البرّ والبحر ، وكان واليها الفاطمي إذ ذاك يعرف بـ « زهر الجيوشي »

---

١ — انظر كتاب الحركة الصليبية تأليف الدكتور سعيد عاشور ط القاهرة ج ٣ ١٩٦١ ص٢٣٩ .

٢ — انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٢٦٤ .

٣ — انظر الحركة الصليبية ج١ ص٢٦٤ .

٤ — الكامل ج١٠ ص١٠٢ .

نسبة إلى أمير الجيوش الأفضل الفاطمي ، فقاتلهم أشد قتال ، فزحفوا إليه غير مرّة ، فعجز عن حفظ البلد ، فخرج منه ، وملك الصليبيون البلد بالسيف قهراً ، وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة ، وسار الوالي به إلى دمشق ، فأقام بها ، ثم عاد إلى مصر ، واعتذر إلى الافضل،فقبل عذره[١] .

هذه هي رواية ابن الأثير لسقوط عكا بيد الصليبيين ، وهي تتفق في فحواها مع رواية ابن القلانسي الذي عاصر تلك الأحداث ، حيث يروي أنه في شهر رجب من سنة ٤٩٧ هـ ، ورد الخبر بنزول (بغدوين) ملك الافرنج صاحب بيت المقدس في عسكره على ثغر عكا ومعه الجنويون والمراكب في البحر والبرّ ... فحصروه من جهاته وضايقوه من جوانبه ولازموه بالقتال إلى أن عجز واليه ورجاله عن حربهم ، وضعف أهله عن المقاتلة لهم ، وملكوه بالسيف قهراً ، وانهزم واليه الفاطمي إلى دمشق ، فأكرمه صاحبها ظهير الدين أتابك[٢] .

هكذا إذن ، كانت نهاية المدينة الجميلة االتي ولد فيها ابن القيسراني ، ولم يقدر للشاعر أن يعيش إلى اليوم الذي يراها في حوزة الإسلام ثانية، إذ إنها لم تعد إلى حظيرة الإسلام إلا على يد صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة الشاعر بخمسة وثلاثين عاماً .

---

١ – الكامل ج١٠ ص١٣٩ .

٢ – ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ – ١٤٤ .

بلد المنشأ :

كانت قيسارية ، على الساحل الفلسطيني كذلك ، هي البلدة التي نشأ فيها الشاعر . هكذا قال العماد الأصفهاني وسبط ابن الجوزي وأبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، ولم يُختلف عليهم في المصادر الأخرى[1] .

وبوسع المرء أن يستنتج أنّ الشاعر قد انتُقِل به من عكا إلى قيسارية صغيراً جداً ، وذلك لأن نسبته إلى قيسارية، وهي النسبة التي اشتهر بها، وأصبحت دون غيرها دالّة عليه ، لا بد أن كانت نتيجة إقامة طويلة نسبياً في ذلك البلد . فإذا ما علمنا أن سن الشاعر عندما غادر قيسارية ما كانت لتتجاوز السادسة عشرة ، لأن المدينة سقطت بأيدي الصليبيين عام ٤٩٤ هـ ، كما سنبيّن في السطور التالية ، فإن ذلك يقودنا بالضرورة إلى أن الشاعر قد انتقلت به أسرته من عكا إلى قيسارية خلال طفولته .

وليس بوسعنا أن نجزم في السبب الذي جعل أسرة الشاعر تنتقل به من مدينة فلسطينية ساحلية ، إلى مدينة ساحلية أخرى لا تبعد عنها كثيراً . ولعل السبب مرتبط باستقرار سياسي نسبي في قيسارية ، إذا ما قورنت بعكا ، لا سيما أنه قد مرّ معنا أن عكا حاصرها الفاطميون واستولوا عليها عام ٤٨٢ هـ،

---

١ – انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص٩٦ . مرآة الزمان ج٨ ص٢١٣ . النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٠٢ .

أي بعد مولد الشاعر بأربع سنوات . أو لعل الأمر يتعلق برزق توافرت أسبابه للأسرة في قيسارية ، أكثر من توافره في عكا . وفي قيسارية يقول ياقوت : « بلد على ساحل الشام ، تعد في أعمال فلسطين ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن ، واسعة الرقعة طيبة البقعة ، كثيرة الخير والأهل »[1] . ويصفها ناصري خسرو بأنها « مدينة جميلة ، بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج ، وبها عيون جارية ، ومسجدها الجامع جميل ، ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته »[2] .

ولعلّ قصة قيسارية مع الصليبيين ، لا تختلف كثيراً عن قصة عكا . إلا في أنها كانت أقل منعة من أختها وبالتالي أضعف مقاومة للغزاة . ولنا أن نتصوّر أن ارتباط هذه المدينة بذاكرة ابن القيسراني ومشاعره لا بدّ أن كان أقوى من ارتباط عكا بها ، وذلك لأنه كان أنضج عمراً عندما سقطت قيسارية ، ومن ثم أقدر على ادراك الأمور ، ولأنه غادرها مبعداً عنها بالقوة بعد أن احتلها الغزاة الصليبيون ، مع ما رافق احتلالهم من مآس كان هو شاهداً لها ، وأحد من عانوا منها .

وأول عهد قيسارية بالصليبيين ، يوم أن مروا بها بعد مرورهم بعكا ، وهم في طريق زحفهم إلى بيت المقدس ، بعد احتلال أنطاكية . ويبدو أن المدينة قد اتقتهم بالطريقة نفسها التي اتقتهم بها عكا وصور من قبل — أي بالملاينة وعدم التعرض لهم . ثم اتبعت هي وعسقلان وعكا نهجاً واحداً بعد أن استقر الصليبيون في القدس ويافا ، وأخذوا يهددون مدن الساحل ، وذلك باقامة علاقة أشبه ما تكون بالتبعية لملك القدس الصليبي[3] .

---

١ — معجم البلدان ط دار صادر ١٩٥٧ ج٤ ص٤٢١ .

٢ — سفرنامة تأليف ناصري خسرو علوي (بالفارسية) ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . مطبوعات معهد اللغات الشرقية ، كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٤٥ ص١٨٠ .

٣ — انظر : الحركة الصليبية ج١ ص٢٣٩ و ص٢٦١ .

لكن دولة الصليبيين في القدس ، كانت تنظر إلى مدن الساحل باعتبارها المنافذ البحرية التي تؤمن اتصالها بمصادر قوتها البشرية والمادية في أوروبا . فلا عجب أن نرى « بلدوين » الأول ملك القدس الذي خلف « جودفري » ينتهز فرصة وصول اسطول جنوي إلى حيفا ، ثم إلى يافا فيتفق مع بحارته على احتلال مدن الساحل ، ومن ثم اتجه بلدوين بجيشه براً ، وبحذائه الاسطول الجنوي في البحر نحو قيسارية ، التي كانت ما تزال في ظل تبعية اسمية للفاطميين . ويقول ابن القلانسي انه تم للصليبيين فتح قيسارية في آخر رجب سنة ٤٩٤ هـ بالسيف ، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها ، وأعانهم الجنويون عليها[١] . ويتابعه ابن الأثير فيقول : وفي رجب من سنة ٤٩٤ هـ ، ملك الفرنجة قيسارية بالسيف ، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها[٢] .

وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية في قيسارية ، فقتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء ، وأعقب ذلك توزيع الغنائم ما بين بلدوين والجنويين . وعندما احتمى بعض أهل البلد في الجامع ، لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم ، دون أن يفرّقوا ما بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحوّل الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين[٣] .

ولا بدّ أن تكون هذه المشاهد المرعبة قد شيعت ابن القيسراني الفتى ، وهو يغادر مدينته المحتلة مضطراً بعد أن سقطت في أيدي الغزاة . فالعماد الأصفهاني يؤكد رحيله عن المدينة بعد احتلالها حين يقول : « ثم انتقل عنها بعد استيلاء الفرنج على بلاد الساحل »[٤] . ويقول سبط ابن الجوزي كذلك إن انتقال الشاعر قد تم بعد أن « استولت الفرنج على الساحل »[٥] .

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص١٣٩ .

٢ – الكامل ج١ ص١٢١ .

٣ – انظر الحركة الصليبية ج١ ص٢٩٣ ، حيث نقل الدكتور سعيد عاشور عن : Albert d'Aix, pp. 453 — 454 .

٤ – انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص٩٦ .

٥ – مرآة الزمان ج٨ ص٢١٣ .

الملتجأ الأول : دمشق :

إذا كان ابن القيسراني قد ترك الساحل الفلسطيني نهائياً بعد سقوط قيسارية ، كما تشير إلى ذلك الروايتان السالفتان ، وكما يتوقع المرء بعد أن أصبح الساحل الشامي كله مهدداً بالخطر الصليبي الاستيطاني المتفاقم ، فلا بد أن يكون قد توجه إلى الدواخل ، وعلى وجه التحديد ، إلى دمشق أو حلب ، بوصفهما المأمنين الرئيسيين المتبقيين في يد المسلمين من مدن الشام . ونقول إلى دمشق أو حلب ، لأن ثمة روايات عن توجهه إلى حلب كما هو واضح من قول سبط ابن الجوزي : « ولما استولت الفرنج على الساحل . انتقل إلى حلب ، ثم إلى دمشق »[1] ، وكذلك من قول أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي الذي يذكر أن الشاعر « نشأ بقيسارية الساحل ، ثم انتقل إلى حلب ودمشق »[2] . إلا أن ابن العماد الحنبلي يقول في شذراته عن ابن القيسراني : « تولى ادارة الساعات التي بدمشق مدّة ، ثم سكن حلب »[3] . ونحن نرجح أن الشاعر توجه إلى دمشق بعد تركه للساحل الفلسطيني ، وذلك للاعتبارات التالية :

أ – كانت دمشق أقرب المراكز الإسلامية الكبرى لمدن الساحل التي

---

١ – مرآة الزمان ج٨ ص٢١٣ . وانظر أيضاً « منادمة الأطلال ومسامرة الخيال » ص ٣٦٣ لعبد القادر بدران طبع المكتب الاسلامي .

٢ – النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٠٢ .

٣ – شذرات الذهب ج٤ ص ١٥٠ .

سقطت في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري ، ومنها قيسارية وعكا ، وهي على أي حال أقرب كثيراً من حلب إلى مدن الساحل الفلسطيني . ولذا فإن التجاء المسلمين المقصين من مدن الساحل الفلسطيني إلى دمشق أكثر احتمالاً من التجائهم إلى حلب. وقد التجأ والي عكا – زهر الجيوشي – بالفعل إلى دمشق عندما سقطت عكا عام ٤٩٧ على الرغم من أنه كان يدين بالطاعة لحكام القاهرة من الفاطميين ،لا لحكام دمشق من السلاجقة .

ب – يذكر صاحب مرآة الزمان نفسه – وهو الذي أورد خبر انتقال ابن القيسراني من الساحل الفلسطيني إلى حلب – أن ابن القيسراني كان يتولى عمل الساعات عند باب جيرون في دمشق،وأنه هرب إلى حلب بعد أن بلغ حاكمها شمس الملوك أنه هجاه[١] . وصاحب مرآة الزمان ينقل هذا الخبر عن ابن عساكر ، مما يكسبه أهمية خاصة ، لأن ابن عساكر من أهل دمشق من ناحية ، وممن اجتمع بالشاعر شخصياً من ناحية أخرى[٢] . والرواية على هذه الشاكلة ، تبين بجلاء أن الشاعر سكن دمشق قبل أن يخرج منها مروّعاً إلى حلب . والإشارة إلى أنه كان يتولى عمل الساعات عند باب جيرون في دمشق لها دلالة خاصة هي الأخرى ، إذ توحي بأن الشاعر كان مستقراً في دمشق ، يتعاطى فيها صناعة للعيش ، قبل أن يغادرها إلى حلب .

جـ – توجد قرائن تدل على أن سنة ٥٢٧ هـ بالذات ، ربما كانت السنة التي ترك فيها ابن القيسراني دمشق متوجهاً إلى حلب ، بعد اقامة طويلة في دمشق ربما امتدت ثلاثاً وثلاثين سنة ، (٤٩٤ – ٥٢٧ هـ) ، ففي مخطوطة ديوان الشاعر ملاحظة هذا نصها : « وهذه مقاطيع عملها عند قفوله من العراق إلى الشام يتشوّق فيها السكن والوطن وذلك سنة ٥٢٧ هـ ومن ذلك :

---

١ – انظر مرآة الزمان ج٨ ص٢١٣ .

٢ – انظر في ذلك معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون . ج٨ ص٦٤ .

أقمت بالأنبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
أشتاق أهلي بدمشق وفي بغداد حظّ القلب والعين

وفي ذلك ما يدل دلالة يقينية على أن الشاعر كان في عام ٥٢٧ هـ ما يزال يتخذ من دمشق مقاماً له ولأهله .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن شمس الملوك الذي قيل ان الشاعر هجاه مما أدّى إلى تنكره له ومن ثم إلى هرب الشاعر، قد تولى الحكم بعد موت والده « تاج الملوك ، بوري بن طغتكين » سنة ٥٢٦ هـ وأنه بقي في الحكم إلى أن قتل عام ٥٢٩ هـ[١] — تبيّن لنا من مجموع هذه الأمور أن مغادرة الشاعر دمشق نهائياً إلى حلب ، لا بد أن تكون ما بين سنتي ٥٢٧ و ٥٢٩ هـ .

د — لم يعرف عن اتصال ما بين ابن القيسراني وحكام دمشق ، بعد أن توجه إلى حلب ، إلا في آخر سنتين من عمره . فالعماد الأصفهاني ينقل في « الخريدة » عن مجير الدين أبق ، آخر حاكم من حكام دمشق قبل أن يضمها نور الدين إلى ملكه عام ٥٤٩ هـ ، أن ابن القيسراني أنشده قصيدة في سنة ٥٤٧ هـ[٢] . ومن المؤكد أن قدوم الشاعر إلى دمشق سنة ٥٤٧ هـ لم يكن للاقامة الدائمة ، وذلك لأن ثمة رواية صريحة أوردتها عدة مصادر تتحدث عن وفود آخر لابن القيسراني على دمشق سنة ٥٤٨ هـ ، بدعوة من حاكمها مجير الدين . إلا أنه اصيب بعيد قدومه إليها من حلب بمرض أدى إلى وفاته ، ولما يمضِ على وصوله إلى المدينة إلا عشرة أيام[٣] .

من كل هذا الذي تقدم ، يمكن القول بكثير من الاطمئنان ان ابن القيسراني قد انتقل إلى دمشق بعد احتلال الصليبيين لبلده قيسارية ، وأنه

---

١ — انظر شذرات الذهب ج ٤ ص٧٨ . ذيل تاريخ دمشق ص٢٣٠ — ٢٣٤ ، ٢٤٥-٢٤٧.
٢ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص١١٥ .
٣ — انظر ذيل تاريخ دمشق ص٣٢٢ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص٢٢٧ . معجم الأدباء ج١٩ ص٦٥ .

اتخذها دار مقام له لفترة طويلة من حياته ، بل لأطول فترة من فترات حياته قضاها في بلد واحد ، إذ امتدّت هذه الفترة لأكثر من ثلاثين عاماً كما تقدم .

هذه هي علاقات ابن القيسراني بدمشق ، فما علاقة دمشق بأحداث الغزو الصليبي وكيف تأثرت بها وأثرت فيها ؟

يجدر بنا أن نتذكّر أولاً أن المدينة كانت منذ عام ٤٧١ هـ تحت حكم أسرة سلجوقية ، إذ استولى عليها في العام المذكور تاج الدولة « تتش » أخو السلطان السلجوقي المشهور « ملكشاه »[١] . وكانت العلاقة بين حاكم دمشق السلجوقي والسلطان السلجوقي في بغداد أو في المدينة التي كان يختارها مقراً له في المشرق الإسلامي تشبه إلى حد كبير العلاقة التي عرفت في حقبة من حقب التاريخ ما بين أمراء الاقطاع . ولعلّ العبارة التالية التي أوردها أبو شامة توضح ما ذهبنا إليه : « ثم أقطع السلطان « ملكشاه » حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر ، فأقطعه الجميع ، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة ٤٨٧ هـ . واقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير « ياغي سيان » ، وكان السلطان قد اقطع أخاه « تتش » تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس »[٢] .

ولما قتل « تتش » عام ٤٨٨ هـ ، آلت دمشق إلى ولده « دقاق » الذي بقي في الحكم إلى حين وفاته عام ٤٩٧ هـ [٣] .

ومعنى ذلك أن الغزوة الصليبية الأولى وقعت على بلاد الشام و « دقاق » حاكم لدمشق ، في حين كان أخ له اسمه « رضوان » يحكم حلب[٤] .

---

١ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص١١٢ .
٢ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٦١ ، ٦٥ .
٣ – انظر الكامل ج١٠ ص٩١ – ٩٢ .
٤ – المصدر نفسه ص٩١ .

وقد سبق أن تعرضنا لرواية ابن الأثير عن مكاتبة الصليبيين « لدقاق » و « رضوان » صاحبي دمشق وحلب عام ٤٩١ هـ لإيهامهما أنهم لا يقصدون غير البلاد التي كانت للروم « مكراً منهم وخديعة ، حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية »[١] .

على أن الصليبيين بعد أن مكّنوا لأنفسهم في فلسطين بعد احتلالهم القدس ، أخذوا يتطلعون إلى أقاليم الجليل الذي كان قبل وصولهم موضع نزاع ما بين « دقاق » والفاطميين . ولم يجد الصليبيون بزعامة « تنكرد » صعوبة في احتلال طبريا ثم بيسان ، وبعد ذلك أخذوا يوسعون منطقة نفوذهم ، فهاجموا ريف طبريا وريف دمشق حتى اقترب « تنكرد » من دمشق نفسها . ولما رأى أمير السواد أن « دقاق » غير قادر على حمايته من الصليبيين ، اعترف بالتبعية لتنكرد ، ودفع جزية له[٢] .

وبعيد وفاة « دقاق » سنة ٤٩٧ هـ ، تولى أتابكه « طغتكين » أمر دمشق والأتابك هو مربي الملك عند السلاجقة . وبعد أن استقام الأمر للحاكم الجديد في دمشق ، اتخذ من الصليبيين موقفاً صلباً تمثل في مقارعته المستمرة لهم ،ومساعدته المتواصلة للبلدان الشامية التي كانت تتعرض لهجمات الصليبيين ، فضلاً عن مساعدته للفاطميين في الجنوب، كما هو ظاهر من إنجاده المصريين الذين قدموا سنة ٤٩٨ هـ وقاتلوا الصليبيين قرب عسقلان[٣] .

وتعددت المصادمات بين « طغتكين » والصليبيين وامتدت ، فكان بينه وبينهم لقاء عام ٤٩٩ هـ ، وآخر عام ٥٠٢ هـ وثالث عام ٥٠٤ هـ حين أنجد مدينة صور بعد أن حاصرها الصليبيون[٤] . وفي سنة ٥٠٧ هـ التقى عسكره

---

١ – انظر الكامل ج١٠ ص ١٠٣ .

٢ – انظر الحركة الصليبية ج١ ص ٢٦١ – ٢٦٦ .

٣ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ . العبر ج٣ ص٣٥٠ .

٤ – انظر في ذلك شذرات الذهب ج٣ ص٤٠٩ . العبر ج٣ ص٣٥٠ . العبر ج٤ ص٣ ذيل تاريخ دمشق ص١٨٠ .

يؤازره عسكر الجزيرة الفراتية بعسكر الصليبيين في أرض طبرية وكانت وقعة مشهورة انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة[١] .

وقد استطاع « طغتكين » أن يهزم الصليبيين مرة أخرى سنة ٥١٠ هـ في البقاع وكذلك سنة ٥١٣هـ عندما هزم صاحب أنطاكية الصليبي بالتعاون مع أمير الموصل[٢] .

وقد تركت مجاهدة « طغتكين » للصليبيين أثراً طيباً في نفوس مؤرخي العرب ، كما يتضح من تنويه سبط ابن الجوزي بجهاده[٣] ، ومن عبارة الحافظ الذهبي الذي يقول وهو يعرض لوفاته سنة ٥٢٢ هـ : « وكان شهماً مهيباً مدبراً سائساً له مواقف مشهورة مع الفرنج »[٤] . وبوفاة أتابك « طغتكين » انتقل حكم دمشق إلى ولده « تاج الملوك بوري » . ولقد كان له هو الآخر مواقف صلبة ضد الصليبيين ، ولو أن انشغاله بدسائس الباطنية من أول سنة تولى فيها الحكم . ثم اغتيال الباطنية له ولما يمض على حكمه أربع سنوات . قد جعل أثره في مقارعة الصليبيين أقل من أثر أبيه .

وأول اشارة إلى مجاهدة « بوري » للصليبيين وارتباط ذلك باسم شاعرنا القيسراني ، أوردها أبو شامة في الروضتين وذلك في العبارة التالية : « وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين ، أنشده إياها عند كسرة الإفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين »[٥].

والحق أن من الأمور التي تجلب النظر ، أننا لا نجد قبل هذه الاشارة

---

١ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص١٨٧ . مرآة الزمان ج٨ ص٥١ . العبر ج٤ ص١٢ .
٢ – انظر العبر ج٤ ص ٢٠ .
٣ – مرآة الزمان ج٨ ص٥٥ – ٥٦ .
٤ – العبر ج٤ ص ٥١ .
٥ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص١٤١ .

في روايات المؤرخين أو شعر ابن القيسراني الذي بين أيدينا ما يدل على اتصال سابق ما بين الشاعر وحكام دمشق ، مع أن المدة ما بين السنة التي ارتحل فيها إلى دمشق (٤٩٤هـ) وبين سنة ٥٢٣ هـ مدة طويلة – تسع وعشرون سنة . وقد نجد تفسيراً معقولاً لعدم اتصال الشاعر بدقاق الذي كان يحكم دمشق حين وافاها قادماً من الساحل المحتل ، وذلك بالقول إن الشاعر كان صغير السن إذ ذاك ، ولم يكن قد اشتهر في تلك الفترة المبكرة من عمره . ولكن الأمر يغدو أصعب ، حين نحاول تفسير عدم اشادة الشاعر بأعمال « طغتكين » الذي حكم دمشق حتى سنة ٥٢٢ هـ ، وكانت سن الشاعر عند وفاة الحاكم أربعاً وأربعين سنة . فهل عدم الشاعر وسيلة للاتصال بالحاكم ، أو اتصل به فعلاً وأشاد بأعماله . ولكن شعره فيه ضاع ولم يصلنا ؟ ليس في أيدينا من الوثائق ما ينقلنا من دائرة الافتراضات إلى دائرة التثبّت واليقين...

على أن صلة ابن القيسراني بالأمير « بوري » بن « طغتكين » لم تكن صلة عابرة كما تدل على ذلك رواية أوردها ابن ظافر ، حكى فيها قصة دخول الشاعر على الأمير « بوري » وهو جالس على بركة ، حيث طلب الأمير منه أن يصف تلك البركة[1] .

ونعرض لقصة تآمر الباطنية على « بوري » لأن هذا التآمر ارتبط بالصليبيين منذ البداية . وخلاصة القصة أن وزيراً لبوري يدعى بـ « المزدغاني » تآمر مع الباطنية الذين كانوا في دمشق على مراسلة الصليبيين لتسليمهم المدينة ، – دمشق – على أن يعوّضوه عنها مدينة « صور » . وقد قرر الوزير مع الباطنية في المدينة أن يغلقوا أبواب الجامع والناس في الصلاة . ووعد الفرنج أن يهجموا على البلد في تلك الساعة . ولكن « بوري » علم بالمؤامرة ، فأعدم الوزير الخائن ، ثم هاجم الدمشقيون الباطنية الذين في البلد يوم الجمعة

---

١ – انظر « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الأزدي ، بهامش كتاب « شرح شواهدالتلخيص المسمى معاهد التنصيص ، لعبد الرحيم العباسي ، المطبعة البهية ، مصر ١٣١٦ ج٢ ص٤٦–٤٧ .

في نصف رمضان من عام ٥٢٣ هـ ، فقتلوا منهم أعداداً كبيرة . وجاء الصليبيون ونازلوا دمشق ، فذهبت طائفة من الدمشقيين يستصرخون الناس في بغداد ، ثم تناخى عسكر دمشق والعرب والتركمان ، فبيتوا الفرنج وأنكوا فيهم[١] .

ولا شك في أن هذه الواقعة مع الصليبيين هي ذاتها موضوع قصيدة ابن القيسراني التي أوردها صاحب الروضتين ، إذ إن تاريخ القصيدة المذكورة هو عام ٥٢٣ هـ ، الذي حدثت فيه الوقعة المذكورة .

وعلى الرغم من قصر المدة التي حكم خلالها بوري بن طغتكين ، فإنه نال تقدير المؤرخين الذين وصفوه بـ « المجاهد » . فها هو الحافظ الذهبي يقول وهو يروي خبر اغتيال « بوري » على أيدي الباطنية عام ٥٢٦ هـ : « وكان شجاعاً مجاهداً جواداً كريماً ، سد مسد أبيه »[٢] .

أما « شمس الملوك اسماعيل » بن « بوري » وخليفته في حكم دمشق ، فيبدو أنه كان موضع رضاً وتقدير في البداية لمحاربته الصليبيين ، ولكنه لم يلبث أن تحوّل إلى حاكم ظالم لا يحتمل . وهذا التقدير الموقوت لشمس الملوك نستخلصه من عبارة للحافظ الذهبي ، نقلها عنه كذلك ابن العماد الحنبلي ، هذا نصها : « كان وافر الحرمة ، موصوفاً بالشجاعة ، كثير الاغارة على الافرنج ، أخذ منهم عدة حصون[١] . ثم تتفق المصادر كلها بعد ذلك على أن شمس الملوك ما لبث أن تحوّل إلى حاكم « ظالم مصادر جبّار مُسَوْدَن » ، حتى يئس منه أقرب الناس إليه ، فدبّروا قتله[٢] .

---

١ – انظر في ذلك ذيل تاريخ دمشق ص٢٢٤ . مرآة الزمان ج٨ ص١٣٠ . العبر ج٤ ص٥٢ . شذرات الذهب ج٤ ص٦٩ .

٢ – العبر ج ٤ ص ٦٩ .

١ – العبر ج٤ ص٧٧ . شذرات الذهب ج٤ ص ٩٠ .

٢ – انظر : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ . مرآة الزمان ج٨ ص ١٥٣ . العبر ج٤ ص٧٧ شذرات الذهب ج٤ ص ٩٠ .

ومما يجدر ذكره أن «شمس الملوك» هذا ، هو الذي ، قيل إن ابن القيسراني قد هجاه ، وإذ تنكّر له ، هرب الشاعر من دمشق إلى حلب [١] .

ولا نجد لأخي شمس الملوك ، المدعو شهاب الدين محمود بن بوري من أثر يذكر في مقارعة الصليبيين ، إذ كانت السلطة الحقيقية خلال مدة حكمه التي امتدّت أربع سنوات (٥٢٩ — ٥٣٣ هـ) لأتابكه «معين الدين أنر» . وحين سقط «محمود» بيد مماليكه في شوال عام ٥٣٣ هـ ، احضر هؤلاء المماليك أخاه «جمال الدين» محمداً من بعلبك فملكوه دمشق[٢] .

ومرة أخرى لا نستبين للحاكم الجديد أثراً يذكر في محاربة الصليبيين خلال حكمه الذي استمر عشرة شهور فقط ، وحين توفي عام ٥٣٤ هـ ، اقيم بعده ابنه مجير الدين أبق ، وهو صبي مراهق ، فاشتدت قبضة الأتابك «معين الدين أنر» على المدينة[٣] .

بيد أن دمشق كانت محور عدد من الأحداث المتصلة بصورة أو بأخرى بالحروب الصليبية ، منذ عام ٥٣٤ هـ . ففي هذا العام حاصرها عماد الدين زنكي ، فاستنجد حكامها بالصليبيين . وسلم إليهم «معين الدين أنر» حصن بانياس مقابل مساعدتهم له[٤] .

وفي عام ٥٤٣ هـ ، تعرضت المدينة لاخطر حصار صليبي ، حينما اشترك صليبيو الحملة الثانية مع الصليبيين المستوطنين بأرض الشام في محاصرة المدينة . وتضامّت القوى الإسلامية في دمشق وحلب والموصل للدفع عن عن المدينة ، وكان على رأس المنجدين ، نور الدين صاحب حلب إذ ذاك

---

١ — أنظر مرآة الزمان ج٨ ص ٢١٣ . النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٠٢ .
٢ — انظر العبر ج٤ ص ٩٢ . شذرات الذهب ج٤ ص ١٠٣ .
٣ — أنظر العبر ج٤ ص ٩٣ . شذرات الذهب ج٤ ص ١٠٥ .
٤ — انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٥ . العبر ج ٤ ص ٩٣ .

وأخوه غازي صاحب الموصل . وقد أورد لنا صاحب العبر وصفاً حياً مفصلاً للحصار . ومن ذلك قوله : « وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرع إلى الله ، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع ، وضجّ النساء والأطفال مكشفي الرؤوس ، وصدقوا الافتقار إلى الله فأغاثهم »[1] . واستشهد في المعارك التي دارت في ضواحي المدينة الإمام الفقيه « يوسف الفندلاوي » والشيخ الزاهد « عبد الرحمن الخلحول » ، وقد أورد ابن العماد الحنبلي قصه استشهاد الشيخ الفندلاوي في رواية مثيرة حين قال عنه : « قتل في سبيل الله في حصار الفرنج لدمشق ، مقبلاً غير مدبر بالنيرب ، أول يوم جاءت الفرنج ، وقبره يزار بمقبرة « باب الصغير » . خرج راجلاً مع أصحابه لقتال الفرنج ، فقال معين الدين له : « يا شيخ ، ان الله قد عذرك ، ليس لك قوة على القتال ، أنا أكفيك » . فقال : قد بعتُ واشترى ، لا أقيله ولا أستقيله . وقرأ : إن الله اشترى ... الآية » . ومضى نحو الربوة ، فالتقاه طلب الفرنج فقتلوه ، وحمل إلى باب الصغير ، وقبره من جانب المصلى قريباً من الحائط . وعليه بلاطة منقورة فيها شرح حاله[2] .

هذا ، وقد تعرّضت دمشق لحصارين من نوعٍ آخر عامي ٥٤٤ و ٥٤٦ هـ على يد نور الدين ، حينما حاول أن يدعّم الجبهة الإسلامية ويوحدها ، بضم دمشق إلى حلب ، لا سيما بعد أن تعاون حكام دمشق مع الصليبيين ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بينه وبين أولئك الحكام ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في صفحات سابقة .

وهكذا نرى أن دمشق ، التي ارتبطت حياة ابن القيسراني بها مدة طويلة ، قد شهدت خلال حياة الشاعر أنماطاً من العلاقات مع الصليبيين . فمن طمع فيها وتهديد لها وغزو لأطرافها ، إلى محاولات جادّة قام بها بعض أمرائها

---

١ — العبر ج ٤ ص ١١٧ .

٢ — شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣٦ .

لدفع خطر الصليبيين، إلى مهادنة موقوتة بين الطرفين تغلب عليها سمة الانتهازية، إلى كونها مطمحاً للقوتين الرئيسيتين في أرض الشام — قوة الزنكيين الإسلامية في الشمال، وقوة الصليبيين في الجنوب والغرب، إلى أن آلت المدينة، كما كان ينبغي أن تؤول، إلى حكم نور الدين، بعد مضي سنة واحدة على وفاة ابن القيسراني[1].

ولقد شاءت الأقدار أن يكون جدث ابن القيسراني ضمن ما تحول من أرض دمشق إلى الحاكم الجديد[2] ...

---

١ — انظر العبر ج٤ ص ١٣٥.

٢ — انظر «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» ص ٣٦٣ — ٣٦٤ بتحقيق زهير الشاويش فقد جاء فيه انه توفي بدمشق سنة ٥٤٨ ودفن بباب الفراديس.

الملتجأ الثاني : حلب

من المرجّح جداً أن تكون علاقة الشاعر بحلب قد بدأت حوالي سنة ٥٢٧ هـ كما أسلفنا . حين انتقل إليها مغاضباً لصاحبها شمس الملوك بعد أن اتُهم بهجائه . وكانت حلب في ذلك الوقت في حوزة « عماد الدين زنكي » صاحب الموصل ، إذ إن المدينة وقعت في قبضته عام ٥٢٤ هـ [١] .

ويذكر النعيمي أن ابن القيسراني قد تولى خزانة الكتب في المدينة[٢] ، وفي هذا ما يوحي بأن الشاعر اتخذ من حلب مستقراً جديداً له ، وأخذ يزاول فيها مهنة للارتزاق ، كما فعل من قبل في دمشق ، حين كان يزاول فيها إدارة الساعات في الجامع الأموي .

والمتتبع لشعر ابن القيسراني في مظانه المختلفة ، يلحظ أن الشاعر قد أقام في حلب اتصالات ما بينه وبين ذوي الأمر والنفوذ في المدينة ، ابتداء من صاحب الأمر الأول فيها ، إلى من دونه من وزراء وقضاة ونواب وأمناء ، كما تدل على ذلك مدائحه وأخباره[٣] .

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ . إلا أن ابن الأثير والحافظ الذهبي يقولان ان عماد الدين تسلم المدينة عام ٥٢٢ هـ . انظر الكامل ط صادر ج ١٠ ص ٥٢٢ . العبر ج٤ ص ٥٠ .

٢ – عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٤ ص٣٨٨ .

٣ – انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، تاريخ الاتابكة: ٨٧ ،=

وبوسعنا أن نستخلص من شعر ابن القيسراني ، وكذلك من الروايات المتناثرة عن حياته في المصادر المختلفة ، أن حلب كانت له الدار بعد دمشق ، وأن أية رحلات له خارج المدينة لم تكن إلا غيبات قصيرة الأمد ، ذات صبغة موقوتة ، يعود بعدها الشاعر إلى بيته وأهله في المدينة . ولا يغير من هذا القول أو يؤثر فيه ، أن الشاعر توفي في دمشق ، إذ كانت وفادته عليها مجرد استجابة لدعوة من صاحبها مجير الدين ، كما مرّ آنفاً ، بدليل أن وفادة سابقة لوفادته الأخيرة على دمشق سنة ٥٤٨ ، قد وقعت بالفعل في العام السابق سنة ٥٤٧ هـ ، حيث مدح الشاعر أمير المدينة ثم عاد إلى حلب . وكانت ظروف مرضه الذي لم يمهله إلا عشرة أيام في وفادته الأخيرة على دمشق ، هي التي احتبسته في دمشق ، إلى أن أدّت وفاته نتيجة هذا المرض إلى استقرار أبديّ في ترابها ، حيث لا مجال لعَوْد ولا اختيار فيه ...

ولسوف نرى عندما نستعرض شعر ابن القيسراني في دائرة ارتباطاته التاريخية ، أن الشاعر قد ربط قدره بقدر نور الدين صاحب حلب بعد اتصاله به ، وأن هذا الارتباط الذي اختاره الشاعر لنفسه ، لم يتحوّل إلى غير نور الدين ودولته. ويثبت ذلك التتبّع التاريخي لشعر ابن القيسراني، وأنه لم يقم بأية زيارة لدمشق ، إلا بعد سنة من ابرام الصلح ما بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق ، وهو الصلح الذي ارتبط بقدوم مجير الدين من دمشق إلى حلب في خواصّه ، ودخوله على نور الدين في عاصمته ، حيث أكرمه نور الدين ، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه ، بعد أن بذل مجير الدين له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، ومن ثم رجع

= ٩٢ – ٩٤ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ : ١٢٠–١٢١ ، ١٢٨–١٢٩ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ج٢ : ٣٢٣–٣٢٧ ، كتاب الروضتين ج١ ق١ : ص ٨٧ ، مخطوطة ديوان ابن القيسراني : ١ ، ٧ ، ٤٠–٤٦ ، زبدة الحلب ج٢ ص ٢٥٤ ، ٢٧٦–٢٧٨ . بدائع البدائه ج١ : ١٣٧–١٣٨ . مرآة الزمان ج٨ : ١٦٥ ، مختصر الدبيثي : ٥٤ ، ٥٥٥ ، مفرج الكروب ج١ ص ٦٦ .

إلى دمشق سادس شعبان من عام ٥٤٦ هـ [١] .

إذا كان هذا هو ارتباط الشاعر بحلب ، فما ارتباط حلب بالحروب الصليبية ، وأيّ أثر كان لها فيها ؟

لئن تقلّبت الأحوال بدمشق في علاقاتها مع الصليبيين ما بين عداوة ومصانعة وترابطٍ انتهازي ، فان الدور الذي اضطلعت به حلب وحكامها في مقارعة الصليبيين ، كان على وجه العموم ، أصلب من دور دمشق ، وأنكى في الصليبيين . والواقع أنّ حكام حلب يعود إليهم الفضل الأول في الوقوف أمام الصليبيين ، ثم في تجميع القوى الإسلامية لمواجهتهم في جبهة واحدة متصلة .

ولا بأس هنا من تكرار القول أن أول اتصال ما بين الصليبيين وحلب في عهد حاكمها رضوان بن تتش ، قد جرى عام ٤٩١ هـ ، عندما كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية . وذلك حين حاول هؤلاء أن يوهموا حاكمَيْ حلب ودمشق أنه لا مطمع لهم في بلادهما [٢] . وسواء انطلت الحيلة على « رضوان » أو أخطأ رضوان التقدير ، فإنه تقاعس عن نجدة أنطاكية خلال حصارها ، وإنْ شارك بعد سقوط المدينة في محاولة إسلامية لاستنقاذها ، لكنها فشلت ، بسبب من سوء القيادة وانعدام التخطيط الصحيح [٣] .

وكان لا بد أن تنقضي فترة قبل أن تستيقظ حلب من الصدمة ، وتتخذ لنفسها دوراً في مقاومة الصليبيين ، أشدّ أثراً وأكبر فاعلية من ذي قبل . بيد أن ذلك لم يأت إلا بعد محن قاستها المدينة وأعمالها على أيدي الصليبيين . ففي سنة ٥٠٤ هـ ، وفي عهد « رضوان » نفسه ، تملّك صاحب أنطاكية

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ : ٢٠٨ .
٢ – انظر الكامل ط صادر ١٩٦٦ ج ١٠ ص ٢٧٥ .
٣ – انظر المصدر نفسه ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

الصليبي حصن « الأثارب » بالقرب من مدينة حلب ، وقتل من أهله ألفي رجل ، وسبي وأسر الباقين . ثم احتلّ بعد ذلك حصن « زردنا » وفعل بأهله مثل ما فعل بالأثارب . فلما سمع أهل « منبج » بذلك ، فارقوها خوفاً من الصليبيين ، وكذلك فعل أهل « بالس » فاحتلهما الصليبيون . وإذ انتشر الخوف من الصليبيين في بلاد الشام لعدم وجود من يذبّ عن البلاد ، شرع أصحاب البلاد يطلبون الهدنة ، وصالح « رضوان » نفسه الصليبيين على اثنين وثلاثين ألف دينار ، وغيرها من الخيول والثياب ، وصالحهم آخرون كذلك [١] .

وعلى أثر ذلك ، سار جماعة من أهل حلب إلى بغداد ، مستنفرين على الصليبيين فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر للجهاد ، بعد أن ثارت العامة على الخليفة والسلطان . ومن المحزن أنه عندما قدمت الجيوش المنجدة من العراق عام ٥٠٥ هـ ، ووصلت إلى حلب ، أغلق « رضوان » أبواب البلد في وجوههم ، ولم يجتمع بهم[٢] .

من أجل ذلك كله ، كان حكم التاريخ على رضوان شديداً . فهذا ابن الأثير يقول وهو يورد خبر وفاته عام ٥٠٧ هـ : « وكانت أمور رضوان غير محمودة ، وكان يستعين بالباطنية في كثيرٍ من أموره لقلة دينه »[٣] .

وما كان لولديه الصغيرين اللذين وليا المدينة من بعده أن يغنيا شيئاً في مدافعة الصليبيين ، مما اضطر أهل المدينة إلى أن يسلموها إلى نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين عام ٥١٠ هـ ، فهادن هذا الصليبيين ، وعاد إلى بلده بعد أن استخلف عليها ابنه[٤] .

---

١ – العبر ج٤ ص ٧–٩ . الكامل ط دار صادر ١٩٦٦ ج ١٠ ص ٤٨١–٤٨٢ .
٢ – انظر الكامل ط دار صادر ١٩٦٦ ج ١٠ : ٤٨٢ – ٢٨٣ ، ٤٨٦ – ٤٨٧ .
٣ – انظر الكامل ط صادر ج ١٠ ص ٤٩٩ .
٤ – الكامل ط دار صادر ج ١٠ ص ٥٣١ – ٥٣٢ .

إلا أن الصليبيين ساروا عام ٥١٣ هـ إلى نواحي حلب ، فملكوا « بزاعة » وغيرها ، وخربوا أعمال حلب ، ونازلوا المدينة نفسها ، ولم يكن فيها من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً ، فصانع أهلها الصليبيين على أن يقاسموهم أملاكهم التي بباب حلب ! على أن إيلغازي جمع العساكر في ماردين ، وسار نحو حلب ، فهزم الصليبيين هزيمة منكرة في موضع يسمى « تل عفرين » قرب حصن الأثارب ، واستعاد حصن الأثارب و « زردنا »[١] .

ثم عادت أمور المدينة إلى الاضطراب والضعف بعد وفاة « إيلغازي » سنة ٥١٦ هـ ، وبالتالي تعرّضت من جديد لهجمات الصليبيين . وحين حاصرها هؤلاء مرة أخرى سنة ٥١٨ هـ كاتب أهلها « اقسنقر البرسقي » صاحب الموصل وسلموه البلد ، ففك الصليبيون الحصار عنها[٢] . ومع جدّ الحاكم الجديد في محاربة الصليبيين وحسن أثره في الحكم ، إلا أنه لم يلبث أن اغتيل على يد الباطنية في مسجد حلب عام ٥٢٠ هـ[٣] ، ولم يعمّر ولده من بعده إلا سنة واحدة ، مما مهّد السبيل لتسلم عماد الدين زنكي مدينة حلب سنة ٥٢٢هـ بأمر من السلطان السلجوقي[٤] .

وبتولي عماد الدين زنكي الأمور في الموصل وحلب ، فتحت صفحة جديدة مشرقة في قصّة الصراع الطويل بين المشرق الإسلامي والغزاة الوافدين من الغرب ، إذ كانت ولاية عماد الدين إيذاناً بحركة بعث اسلامية ، قلبت الموازين القائمة ، وترتّب عليها استنقاذ تدريجي للأراضي المحتلة ، يواكبها توحيد تدريجي مطرد للامارات الإسلامية في أرض الشام .

---

١ – المصدر نفسه ص ٥٥٤ – ٥٥٥ . العبر ج ٤ ص ٢٨ .

٢ – العبر ج ٤ ص ٤٦ . شذرات الذهب ج ٤ ص ٦١ . الكامل ط دار صادر ١٩٦٦ ج ١٠ ص ٦٢٣ – ٦٢٤

٣ – انظر العبر ج ٤ ص ٤٦ . شذرات الذهب ج٤ ص ٦١ . الكامل دار صادر ١٩٦٦ ج ١٠ ص ٦٣٤ .

٤ – الكامل ط صادر ج ١٠ ص ٥٢٢ . العبر ج ٤ ص ٥٠ .

يقول أبو شامة بعد أن نوّه بشجاعة عماد الدين زنكي : وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وامتدّت إلى بلاد المسلمين أيديهم ... وامتدت مملكتهم من ناحية « ماردين » « وشبختان » إلى عريش مصر ، لم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق ... وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبرّ ثم زاد الأمر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة ، ثم لم يقتنعوا بذلك ، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق ، واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم . وأما أهل حلب ، فإن الفرنج أخذوا منهم مناصفة أعمالهم حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ! فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ، ولاّها عماد الدين زنكي فغزا الفرنج في عقر دارهم[1] .

ويعرب ابن الأثير عن تقدير مماثل لعماد الدين زنكي حين يقول منوهاً به : « ولولا أن الله تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك لبلاد الشام ، لملكها الفرنج ، لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية ، وإذا علم ظهير الدين طغتكين ذلك ، جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها ، فيضطر الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم . فقدّر الله تعالى أنه توفي في هذه السنة (٥٢٢ هـ) ، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين »[2] .

ذلك تقدير كبير من مؤرخين كبيرين ، ليس بينهما وبين عماد الدين تفاوت زمن طويل ، ولقد أثبت عماد الدين أنه كان جديراً حقاً بهذا التقدير .

بدأت ضربات عماد الدين تتتابع على الصليبيين بعيد تسلمه حلب مباشرة .

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٧٦ .

٢ – الكامل (دار صادر ١٩٦٦) ج١٠ ص ٦٥٠ .

ففي سنة ٥٢٣ هـ استرد حصن الأثارب على ثلاثة فراسخ من حلب[١] ، ثم تحول إلى حصن حارم، فصالحه الصليبيون على أن يبذلوا له المناصفة على ولاية حارم ، وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون في الشام بالأمن وحلول النصر ، وسيرت البشائر بذلك إلى البلاد[٢] .

وفي نطاق عملية توحيد القوى الإسلامية المتناثرة في الشام والجزيرة الفراتية، أخذ عماد الدين مدينة حماة من ولد صاحب دمشق[٣] ، ثم أخذ في السنة التالية مدينة « سرجي » «بين ماردين ونصيبين[٤] . وفي عام ٥٢٨ هـ تملك قلعة « الصور » من ديار بكر وجميع قلاع الاكراد الحميدية وقلاع « الهكارية » في منطقة شمال العراق[٥] .

وفي سنة ٥٢٩ هـ حصر عماد الدين دمشق كما تقدم إلى أن رحل عنها بأمر من الخليفة المسترشد بالله[٦] . وتم له في هذه السنة انتزاع معرّة النعمان[٧]. وهاجم في السنة التالية أعمال اللاذقية فأحرز انتصاراً كبيراً ، « وفعل جنوده في بلد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم ... وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً ووهناً »[٨] . وفي سنة ٥٣١ هـ انتزع عماد الدين قلعة « بعرين » قرب حماة[٩] ، فدخل

---

١ – معجم البلدان ط القاهرة ١٩٠٦ ج١ ص ١٠٥ – ١٠٦ .
٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٧٨ .
٣ – الكامل ط صادر ج ١٠ ص ٦٥٨ – ٦٥٩ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٧٨ العبر ج ٤ ص ٥٢ .
٤ – الكامل ط صادر ج ١٠ ص ٦٦٤ .
٥ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ٢١ – ٢٢ .
٦ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٧٩ . الكامل ط صادر ج ١١ ص ٢١ – ٢٢ . العبر ج ٤ ص ٧٥ .
٧ – العبر ج ٤ ص ٧٥ .
٨ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ٤٠ .
٩ – انظر في فتح قلعة « بعرين » الكامل ط صادر ح ١١ ص ٥١–٥٢ . العبر ج٤ ص٨٤ .

القسوس والرهبان بلاد الروم مستنفرين مستنجدين ، وخوفوهم من احتلال عماد الدين لبيت المقدس إذا هو لم يجد من يقف في وجهه .

ويشيد ابن الأثير بما فعله عماد الدين مع أهل المعرّة بعد أن فتحها ، فيذكر أن الصليبيين كانوا عندما ملكوا المعرّة ، أخذوا أموال أهلها وأملاكهم فلما فتحها عماد الدين أحضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من ماتوا ، وطلبوا أملاكهم . فطلب منهم كتبها فقالوا : ان الفرنج أخذوا كل ما لنا ، والكتب التي للأملاك فيها . فقال : اطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على مُلْك يسلم إليه ، ففعلوا ذلك ، وأعاد على الناس أملاكهم . ويقول ابن الأثير معقباً : « وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها[1] » .

وفي سنة ٥٣٢ هـ ضم عماد الدين إلى أملاكه حصن « المجدل » ، من صاحب دمشق ، وأطاعه متولي « بانياس » وهي لصاحب دمشق أيضاً كما أخذ مدينة حمص وقلعتها[2] — كل ذلك في نطاق عملية التوحيد المنوّه عنها للممتلكات الإسلامية .

غير أنه في هذه السنة ، وصلت جيوش ملك الروم التي استثيرت باحتلال عماد الدين لقلعة « بعرين » ، فاحتلت « بزاعة » على ستة فراسخ من حلب وقتلت أهلها وسبتهم ، وبلغ الأمر بالروم أن تتبعوا من نجا من أهل تلك الناحية واعتصم بالمغارات ، فدخنوا عليهم وأهلكوهم فيها . ثم رحل الروم إلى حلب . ومعهم الصليبيون الذين بساحل الشام ، فدافعهم أهلها مدافعة شديدة ، فارتحلوا عنها وتوجهوا إلى قلعة « الأثارب » فامتلكوها ، ثم قصدوا « شيزر » وكانت للأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني . فحصروها . فاستنجد صاحبها بزنكي . فسار إليه ، ونزل على نهر العاصي بالقرب منها

---

١ — الكامل ط صادر ١٩٦٦ ج ١١ ص ٥١ — ٥٣ .

٢ — المصدر نفسه ص ٥٥ .

وأخذ يناوش الروم ، ثم أخذ زنكي يوقع بذكاء ما بين ملك الروم والصليبيين المستوطنين في الساحل حتى شك كل فريق في الآخر وتوجس منه ، وارتحل ملك الروم تاركاً آلات الحصار حول شيزر على ما هي . فتبعه عماد الدين وظفر بكثير من جنده وأخذ جميع ما تركوه[1] .

وفي سنة ٥٣٣ هـ ضمّ عماد الدين أجزاء أخرى من بلدان صاحب دمشق إلى ممتلكاته[2] ، وحاول في العام التالي أن يستولي على دمشق نفسها ، ولكن حكامها استعانوا بالصليبيين مقابل تسليمهم حصن بانياس ، فلم يتمكن عماد الدين من أخذ البلد[3] .

وفي سنة ٥٣٨ هـ فتح عماد الدين عدة بلاد وحصون من ديار بكر ضمها إلى ممتلكاته ، وكان من بين ما افتتحه ، بعض مواقع كانت بأيدي الصليبيين من أعمال ماردين . إلا أن أعظم نصر حققه عماد الدين ، كان فتحه للرها من بلاد الجزيرة سنة ٥٣٩ هـ ، وقد جرت الاشارة إلى هذا الفتح في الصفحات السابقة ، كما سيجري ذكره في الفصل اللاحق عندما يقتضي السياق الاشارة إليه . وقد انبنى على فتح الرها استيلاء عماد الدين على سائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات[4] . يقول أبو شامة في الرها : « وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً ، وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية والرّها . وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم . وملكوا من نواحي ماردين

---

١ – انظر في غزوة ملك الروم هذه لأرض الشام : الروضتين ج١ ق١ ص ٨١ وما بعدها . الكامل ط صادر ١٩٦٦ ج ١١ ص ٥٦ . مرآة الزمان ج٨ ص ٦٣ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٦ . الكامل ط صادر ١٩٦٦ ج ١١ ص ٦٨ وما بعدها

٣ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ . كتاب الروضتين ج١ ص ٨٧ . الكامل ط صادر ج ١١ ص ٧٣ – ٧٥ .

٤ – انظر في فتح الرها : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٤ وما بعدها . الكامل ط صادر ج ١١ ص ٩٨ وما بعدها . العبر ج٤ ص ١٠٦ .

إلى الفرات على طريق سنجار عدة حصون ، كسروج والبيرة ، وجملين ، والموزر . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ورأس عين والرقّة . وأما حرّان ، فكانت معهم في الخزي كل يوم ، قد صبحوها بالغارة »[٢] .

وتشاء المقادير أن يلقى عماد الدين المجاهد مصرعه سنة ٥٤١ ، لا على أيدي الصليبيين ، بل على يد خادم له اغتاله وهو يحاصر حصن « جعبر » الصغير المطل على الفرات . وكان بيد سالم بن مالك العقيلي[٣] .

وبوفاة عماد الدين زنكي ، تظهر على مسرح الأحداث شخصية فذة هي شخصية ولده « نور الدين محمود » الذي اتخذ من حلب قاعدة له ، حيث إن « الموصل » المدينة الأخرى الكبيرة من المدن التي كانت في حكم عماد الدين ، كانت من نصيب ولد عماد الدين الثاني « سيف الدين غازي ».[٤]

لم تختلف خطة نور الدين في معالمها الكبرى عن خطة والده في مواجهة الصليبيين ، إذ كان همّه الأكبر الذي عاش من أجله ، إجلاء الصليبيين عن المشرق الإسلامي ، وتوحيد القوى الإسلامية ، باعتباره السبيل الذي لا بدّ منه لتحقيق النصر على الصليبيين . على أنّ ثمة فرقاً واضحاً ما بين شخصيتي الأب والابن ، سنعرض له بشيء من التفصيل فيما نستقبل من صفحات ، حيث سيظهر لنا أن شخصية نور الدين لا ترتفع عن شخصية والده فحسب ، بل عن شخصيات عصره عامة .

أما الأعمال العسكرية التي قام بها نور الدين في نطاق محاربته للغزاة الصليبيين وتوحيد القوى الإسلامية ، فلا نجد ضرورة لاستعراضها هنا تفصيلاً

---

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٤ .

٣ – الكامل ط صادر ج١١ ص ١٠٩ .

٤ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ١١٢ وما بعدها .

إذ جرت الاشارة إلى بعضها في البند الخاص بـ « العامل الزمني » . وسيجري تفصيلها في الباب اللاحق الذي يبحث في ربط الأحداث بالشعر الذي نظمه ابن القيسراني فيها ، وذلك لأن الشاعر كان دقيقاً في مواكبه أعمال نور الدين فيما نظم من شعر .

وإذا كنا لا نرى أن نقوم باستعراض تفصيلي لما قام به نور الدين منذ أن تولى حكم أملاك أبيه في الشام عام ٥٤١ هـ وإلى حين وفاة الشاعر عام ٥٤٨ هـ ، فاننا نكتفي فيما يلي بعملية سرد مجرّد لهذه الأعمال :

في عام ٥٤١ هـ ، استرد نور الدين مدينة الرّها من الصليبيين بعد أن انتهز هؤلاء فرصة موت عماد الدين ، واحتلوها مرّة أخرى[١] . وفي السنة نفسها استعاد مدينة « ارتاح » وعدداً من الحصون الأخرى[٢] . وفي سنة ٥٤٣ هـ أنجد أهل دمشق ضد الصليبيين الذين حاصروهم بعد أن قدمت من أوروبا حملة صليبية جديدة بزعامة ملك الألمان[٣] . وفي السنة ذاتها امتلك نور الدين حصن « العُريمة » من الصليبيين ، كما ألحق بهم هزيمة كبرى في مكان اسمه « يغرى » من أرض الشام[٤] . وفي سنة ٥٤٤ هـ هزم نور الدين الصليبيين هزيمة منكرة في معركة « أنّب » وانتزع منهم مواقع كثيرة[٥]. وفي السنة نفسها استعاد حصن « أفامية » قرب حماة[٦] . ثم حاصر دمشق بعد أن عاث الصليبيون في أعمال حوران دون أن يجدوا دفعاً من حكام

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٥ .

٢ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ١٢٢ . العبر ج ٤ ص ١١٤ .

٣ – ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ وما بعدها . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٣٧ . مرآة الزمان ج٨ ص ١٩٦ وما بعدها .

٤ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ١٣٤ . مرآة الزمان ج٨ ص ٢٠١ .

٥ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤–٣٠٥ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص١٥٠ وما بعدها .

٦ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٩–١٦٠ . تاريخ الاتابكة ص ١٨٠–١٨١ .

دمشق الذين كانوا قد تعاهدوا معهم ضد من يقصدهم من عساكر المسلمين ، إلا أن الأمر انتهى بالصلح عام ٥٤٥ هـ لاشفاق نور الدين من سفك دماء المسلمين [١] .

وفي السنة التالية احتمل نور الدين هزيمة في معركة من سلسلة المعارك التي خاضها مع الصليبيين ، ولكنه لم يلبث أن أوقع الأمير الصليبي الذي كان يحكم المناطق الواقعة شمالي حلب في أسره ، وسهل عليه بعد ذلك امتلاك قلاعه الكثيرة [٢] .

وفي السنة نفسها حاصر نور الدين دمشق ثانية لاستنصار حكامها بالصليبيين والتحالف معهم ، ولم يغن عن هؤلاء الحكام استعانتهم بحلفائهم الصليبيين ، ومع ذلك، فقد قبل نور الدين الصلح مع أولئك الحكام ، بعد أن بذلوا له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق [٣] .

* * *

من هذا العرض لعلاقات حلب بالصليبيين ، منذ أن طرأ هؤلاء على بلاد الشام عام ٤٩٠ هـ ، وإلى قبيل وفاة ابن القيسراني ، يتضح لنا موقف هذه المدينة من أحداث الحروب الصليبية ، والدور الذي قامت به ، حيث تراوح ما بين دفاع ضعيف وتعرض للخطر والمهانة في الفترة الأولى ، وبين تحوّلها قاعدة نشطة للمسلمين ، تنطلق منها الجيوش لمقارعة الصليبيين في الأرض التي يحتلونها ، أو لتجمع تحت راية حاكم المدينة القوى ، أشتات البلاد الإسلامية الضعيفة المتفرقة ، حتى يكون أثر القوة الإسلامية الموحدة في مقاومة الغزاة أقوى وأشد أثراً .

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٩ .

٢ – الكامل ط صادر ج ١١ ص ١٥٤ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٤–١٨٥ .

٣ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٢–٣١٧ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٠، ٢٠٨، وما بعدها . مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٠٨–٢١٠ .

وعندما استطاع نور الدين بعد عام واحد من وفاة ابن القيسراني أن يدخل دمشق في حوزته ، حيث أصبحت جميع القوى الإسلامية في بلاد الشام في إمرة حاكم واحد ، كان ذلك ايذاناً بأن طرد الصليبيين من الأراضي المحتلة في المشرق الإسلامي ، قد أصبح مسألة زمن ليس إلاّ ...

هذا هو البلد الذي ارتبط به ابن القيسراني بعد أن انتهى ارتباطه بدمشق ، وذاك هو الدور الذي قامت به حلب في محاربة الصليبيين ، ولعله دور لم يقم به بلد آخر من بلدان الشام ....

ثالثاً : الروابط الشخصية

اتصل ابن القيسراني بعدد من شخصيات العصر التي كانت لها مشاركات في الحروب الصليبية ، على تفاوت في مقدار هذه المشاركات وقيمتها . بيد أن شخصيتين ممن اتصل بهم الشاعر ، كان لهما دور خاص في تلك الحروب وهاتان الشخصيتان هما : عماد الدين زنكي ، وولده نور الدين محمود . وقد كان لاتصال الشاعر بهما أثر كبير فيما نظمه من شعر ، بسبب اتصاله عن طريقهما اتصالاً قوياً بأحداث الحروب الصليبية .

وإذا كان الدور الذي اضطلع به كل من عماد الدين وولده نور الدين في قتال الصليبيين لا يحتاج إلى مزيد من الجلاء ، فإن هناك لمسات في شخصيتي الرجلين ، خارج النطاق الحربي ، تجعل لهما أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي ، خلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث الجسام ، خاصة إذا ما قيسوا برصفائهم من الحكام المعاصرين لهم .

أما عماد الدين ، فإنه كان صورة للحاكم القوي البعيد النظر ، الذي ظهر في وقت كانت البلاد خلاله في أشد الحاجة إلى هذا النوع من الحكام . ولعل ما أورده عدد من المؤرخين قريبي العهد به ، من وصف له ، ما يرسم المعالم الكبرى لشخصيته :

يقول صاحب الروضتين : « وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع

بمثلها »[1] . ويقول ابن الأثير في الأتابكة عنه[2] : « وكانت (سيرة عماد الدين) من أحسن سير الملوك ، وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور . وكانت رعيته في أمن شامل ، يعجز القوي عن التعدي على الضعيف . وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول : « مهما كانت البلاد لنا ، فأي حاجة إلى الأملاك ؟ فإن الإقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا ، فإن الأملاك تذهب معها . ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ، ظلموا الرعية ، وتعدّوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم » . ثم يذكر ابن الأثير ما تجدد في أيامه من عمارة البلاد ، لا سيما في الموصل ، وذلك لحسن سيرته .

فكان الناس يقصدونه ويتخذون بلاده دار اقامة . ويذكر أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها . وكان يغرم على ذلك المال الجزيل ويصل إليه كل يوم من عيونه عدة كتب ، وكان لا يمكّن رسول ملك أنْ يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده . أرسل له من يسيّره ، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم . فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً . ثم يذكر ابن الأثير أن من صائب رأي زنكي ، أن أسكن طائفة من التركمان بولاية حلب وأمرهم بمجاهدة الفرنج ، وملّكهم ما استنقذوه من البلاد ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ، وأخذوا كثيراً من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم . وأمّا شجاعته واقدامه ، فأليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال . وأما غيرته ، فكانت شديدة ، ولا سيما على نساء الأجناد ، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها . وكان يقول : إن جندي لا يفارقوني في أسفاري ، وقلّما يقيمون عند أهلهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم ، هلكن وفسدن . وأما صدقاته ، فكان يتصدّق كل

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٦٨ .

٢ – تاريخ الاتابكة ص ١٣٦ .

جمعة بمئة دينار ، ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به . وينوّه ابن الأثير بهيبة عماد الدين التي بلغت من الشدة مبلغاً عظيماً ، حتى روّيت فيها الحكايات ، ويذكر أنه كان قليل التلون والتنقل ، بطيء الملل والتغير ، والأمراء والمقدّمون الذين كانوا معه أولاً ، هم الذين بقوا أخيراً ، من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له .

ويتحدث ابن الأثير في تاريخه « الكامل » عن عماد الدين حديثاً يؤكد ما أورده عنه في الأتابكة ، ويزيده ايضاحاً[1] . أما ابن القلانسي ، فيقول ان الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت ، والمسالك قد اختلّت بعد الهيبة المشهورة ، المنّة المشكورة ، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف ، والعبث في سائر النواحي والاكناف . وقد نظم هذا المؤرخ قصيدة وصف فيها ما آلت إليه الأحوال بعد وفاة زنكي[2] .

وينقل أبو شامة في « الروضتين » معظم ما قاله ابن القلانسي وابن الأثير في عماد الدين ، إذ كان من المعجبين كثيراً به وبابنه نور الدين[3] . وينقل صاحب « مرآة الزمان » كذلك كثيراً مما أورده المؤرخون السابقون من اشادة بزنكي وتنويه بصفاته[4] .

وأما ارتباط الشاعر بنور الدين ولد عماد الدين ، فهو ذو أهمية خاصة بالنسبة إلينا ، وذلك نظراً لما تميّز به نور الدين حتى على والده من صفات ومن بلاء في مقارعة الصليبيين ، ثم نظراً لطبيعة العلاقة ما بين نور الدين والشاعر . ولعلّ فيما مرّ من صفحات ، ما يغني عن الايضاح والتفصيل فيما يرتبط بمقارعة نور الدين للصليبيين ، في حين أن صفات نور الدين

---

١ – انظر « الكامل » (ط صادر) ج ١١ ص ١١٠–١١٢ .
٢ – انظر ذيل تاريخ دمشق : ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
٣ – انظر « الروضتين» ج١ ق١ ص ١٠٩ – ١١٨ .
٤ – مرآة الزمان ج ٨ ص ١٨٩ وما بعدها .

الشخصية تتجلى فيما كتبه عنه مؤرخو العرب ، وفيما نظمه شعراء عصره فيه من شعر المديح والتمجيد . ومن خلال هذا وذاك ، تتراءى لنا الصورة المثالية للمسلم ، إنساناً وحاكماً ومجاهداً ، حتى يغدو نور الدين في مجموع ما نسب إليه من صفات ، إحياء وتجسيداً لشخصية الخليفة الراشدي ، بكل ما تتميز به هذه الشخصية من سمات . وإذا ما تذكرنا كذلك أن نور الدين كان أقوى شخصية إسلامية حاكمة في المنطقة ، تبيّنت لنا الدلالة الخاصة لصلة ابن القيسراني به ، وبالتالي للشعر الذي نظمه فيه .

يقول ابن الأثير ،وهو يورد خبر وفاة نور الدين عام ٥٦٧ هـ[١]: « وطبّق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ، وقد طالعت سير الملوك والمتقدمين ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحرياً منه للعدل » . ويستطرد هذا المؤرخ قائلاً بعد ذلك : « فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه . فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرّف في الذي يخصّه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ....

ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة ، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له ،منها يحصل له في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقلّتها قال : ليس لي إلاّ هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك . وكان يصلي كثيراً بالليل ... وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب !

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده تعصب . وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر .

وأما عدله . فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً ، بل أطلقها جميعاً في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان يعظّم الشريعة ،

---

١ – الكامل (دار صادر) ج ١١ ص ٤٠٣ – ٤٠٥ .

ويقف عند أحكامها . وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه . وأرسل إلى القاضي الشهزروري يقول : لقد جئت محاكَماً ، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم . وظهر الحق له ، فوهبه الخصم الذي أحضره وقال : أردت أن اترك له ما يدّعيه . إنما خفت أن يكون الباعث على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت . ثم وهبته ما يدّعيه . وبنى دار العدل في بلاده . وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ، ولو أنه يهودي ، من الظالم ، ولو أنه ولده وأكبر أمير عنده .

وأما شجاعته، فاليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها . فقال له القطب النشاوي الفقيه : بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين . فإن اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف . فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلي حفظ البلاد والإسلام . ذلك الله الذي لا إله إلا هو !

وأما ما فعله من المصالح ، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها . فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها ، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية ، وبنى الجامع النوري بالموصل ، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق ، وبنى الخانكاهات للصوفية في جميع البلاد ، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة . يقول ابن الأثير : سمعت أن حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري . وكان يكرم العلماء وأهل الدين . ويعظهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه ويتبسط معهم ولا يردّ لهم قولاً ، ويكاتبهم بخط يده . وكان مهيباً في تواضعه . وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب[1] .

ولا يقلّ أبو شامة عن ابن الأثير في الاشادة بنور الدين ، فهو يقول

---

١ – الكامل طبعة دار صادر ج ١١ ص ٤٠٣ – ٤٠٥ .

في مقدمة « الروضتين » في معرض حديثه عن نور الدين وصلاح الدين : « فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين ، فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في اعزاز دين الله أيّ اجتهاد »[1] . ويبلغ حماس أبي شامة لنور الدين وصلاح الدين إلى حد قوله فيهما « إنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرى منه سبحانه ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون : نحن في الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير »[2] .

ويسهب صاحب « الروضتين » في وصف مآثر نور الدين فيذكر أنه أظهر بحلب السنة ، وغيّر البدعة ... وقمع الرافضة ، وبنى بها المدارس ، ووقف الأوقاف وأظهر العدل ... كما بنى في دمشق المدارس والمساجد ، وأصلح طرقها ، ووسع أسواقها ، ومنع أخذ المغارم من أهلها ، وعاقب على شرب الخمر . وكان في الحرب « ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب الضرب ، يقدم أصحابه ، ويتعرّض للشهادة ، وكان يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير . ووقف وقوفاً على المرضى ومعلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين ، ومنع التعرض للحجاج ، وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأُحُد ، وبنى الربط والجسور والخانات ، وجدّد كثيراً من قني السبيل ، ووقف كتباً كثيرة ، وكان حسن الخطّ كثير المطالعة للكتب الدينية ، متتبعاً للآثار النبوية ، مواظباً على الصلوات في الجماعات ، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج ، مقتصداً في الانفاق ، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في في ضجره . وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو ارشاد إلى سنة يتبعها »[3] .

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٥ .

٢ – المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٣ – المصدر نفسه ج١ ق١ ص ١٠ – ١١ .

ويقول صاحب الأتابكة ، قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيهما بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والانصاف منه . قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ... فلو كان في أمة لافتخرت به . فكيف في بيت واحد ؟! أما زهده وعبادته وعلمه ، فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرّف فيما يخصّه إلا من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين . وكان إذا أراد أخذ شيء من تلك الأموال ، أحضر الفقهاء ، واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحلّه . ولم يتعدّه إلى غيره البتة . ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها إلى بلد ما ، وكان يحدّ شاربها الحدّ الشرعي ، كل الناس عنده سواء[1] . ويزيد ابن الأثير على ذلك قوله : ان نور الدين سمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر . وعلى الحقيقة ، فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرّمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية : همّ أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته ، فوقف مع أوامر الشرع ومذاهبه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، واقتدى به غيره منهم ومن سنّ سنّة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وأما شجاعته وحسن رأيه ، فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه أصبر الناس في الحرب ، وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك ... وكان يكثر إعمال الحيل

---

١ – ابن الاثير ، تاريخ اتابكة الموصل ص ٢٩٦ وما بعدها .

والمكر والخداع مع الفرنج ... ومن أحسن الآراء ، ما كان يفعله مع أجناده فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلّف ولداً ، أقرّ الاقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً ، استبدّ بنفسه ، وان كان صغيراً ، رتب معه رجلاً عاقلاً ، يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر . فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ،وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب . وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح ، مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين ، فكثير عظيم . فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون . وحصنها وأحكم بناءها ، وبنى المدارس في حلب وحماة ودمشق ، وبنى الجوامع في جميع البلاد ... وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق[1] .

وبنى أيضاً الخانات في الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كنّ من البرد والمطر . وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً ، وكان يعظّم العلماء ، ويجمعهم عند البحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها [2].

ويقول النعيمي عن نور الدين : « وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة ، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمنا . وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضاً مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ... بلغني من عارف بأعمال الشام

---

١ – تاريخ أتابكة الموصل ص ٣٠٠ وما بعدها .

٢ – تاريخ أتابكة الموصل : ص ٣١١ وما بعدها .

أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان وستمائة ، كل شهر تسعة آلاف دينار صوريّة ، وليس فيها ملك غير صحيح شرعي ، ظاهراً وباطناً ، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث عنه ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه »[1] .

ويقول أبو شامة ان هيبة نور الدين ووقاره كانا في النهاية ، إذ كان شديداً في غير عنف ، رقيقاً في غير ضعف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها ... وكان مجلسه كما ورد في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء ، لا توبن فيه الحرم ، فكان لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدّى هذا [2].

وينوّه العماد الكاتب بلغته المسجوعة في أول كتابه « البرق الشامي » بنور الدين ، فيقول ضمن مقالة طويلة : « كان أعفّ الملوك وأتقاهم ، وأثقبهم رأياً وأنقاهم ، وأعدلهم ، وأزهدهم وأجهدهم ، وأظهرهم وأطهرهم وأقواهم وأقدرهم ... وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضرّ ، فاستفتح معاقلها ، واستخلص عقائلها ... وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع ، فقطعها وعفّى رسومها ومنعها ... وصان الثغور منهم وحماها عنهم ، وأحيا معالم الدين الدوارس ، وبنى للأمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصوفية ... وأجدّ الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرق ببناء الربط والخانات »[3] .

ويذكر أبو شامة أن نور الدين أمر باسقاط القابه في الدعاء على المنابر ،

---

١ – النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٩٩ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٣ .

٣ – اقتباس أبي شامة من كتاب « البرق الشامي » . انظر الروضتين ج١ ق١ ص٢٥–٢٦ .

حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه . وقد أمر نور الدين « خالداً » ابن شاعرنا القيسراني أن يكتب رقعة بهذا المعنى يسيّرها إلى الأطراف ، ثم يقول (أبو شامة) إن نور الدين قد كتب بخطه على رأس الرقعة : « مقصودي ألاّ يكذب على المنبر . أنا بخلاف كل ما يقال . أفرح بما لا أعمل ؟ قلّة عقل عظيم »[1] .

ولا ريب في أن عبارة نور الدين هذه ، في صيغتها الفطرية ، وبساطتها التي تكاد تلحقها بالعاميّة ، تحمل من سمات الصدق والاخلاص ، ما لا تحمله العبارات المتأنقة البليغة .

ويبدو أن أخبار نور الدين ، وقصص تقواه وصلاحه ، قد وصلت أعداءه من الصليبيين ، إذ ينقل جماعة من الصوفية ممن دخلوا القدس للزيارة خلال حكم الصليبيين للمدينة ، أن هؤلاء (الصليبيين) كانوا يقولون: « ابن القسيم (نور الدين) له مع الله سرّ ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلي بالليل ، ويرفع يده إلى الله ويدعو ، والله يستجيب دعاء ه ويعطيه سؤاله وما يردّ يده خائبة فيظفر علينا »[2] .

والحديث عن نور الدين كما أورده معاصروه ومن نقل عنهم ، حديث مستفيض طويل ، وكل هؤلاء يلتقون على أنه كان شخصية فذّة في جهاده وعدله وتقواه وحبه للعلم وحرصه على مصلحة الرعيّة ، في فترة من الزمان عزّ فيها الحاكم الذي تجتمع فيه بعض هذه الصفات ، فكيف بها كلها ، وفي حقبة اضطربت فيها أمور الناس وأحوالهم ، وأصبح الاستقرار الاجتماعي مع ما يصحبه عادة من التزام بالأعراف الخلقية أمراً عزيز المنال .

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٨، ٣٠ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٣٤ .

وحين يفيء ابن القيسراني إلى شخصيّة فذّة كشخصية نور الدين ، تمثل خير حكام المسلمين في المنطقة ، وأكثرهم مجاهدة للصليبيين ، فإن لذلك دلالة فيما يصدر عن الشاعر من قصيد يرتبط بشخصيّة سيده وبلائه .

وتصبح هذه العلاقة بين الشاعر والحاكم ذات أهمية خاصة ، حين يلحظ المتتبع لحياة ابن القيسراني ، كما سبق أن ذكر ، أنه قد حبس نفسه على نور الدين ودولته بعد أن اتصل به ، إذ لم يلتمس الشاعر لنفسه بعد أن اتصل بنور الدين راعياً آخر . وبوسع المرء أن يقول وهو مطمئن ، إن اتصال الشاعر في آخر سنتين من سني حياته بمجير الدين صاحب دمشق ، إنما كان اتصالاً لم يقصد به الدوام من ناحية ، ولا بد أن كان بأذنٍ من نور الدين من ناحية أخرى . ودليلنا على ذلك ، ان الاتصال الأول عام ٥٤٧ هـ ، لم ينبنِ عليه بقاء الشاعر في دمشق ، إذ انه عاد ثانية إلى حلب ، البلد الذي اتخذه مستقراً له ولأسرته . وعلى ذلك ، فإن اتصاله الثاني بأمير دمشق عام ٥٤٨ هـ ، كان يقصد به أن يكون موقوتاً كذلك ، لولا أن تداركته المنية في تلك المدينة على عجل ، بعد عشرة أيام فقط من وصوله إليها .

والذي يعزز رأينا بأن توجه الشاعر إلى دمشق كان بإذن من نور الدين ، ان اتصال الشاعر بمجير الدين ، لم يتّم إلا بعد عام ٥٤٦ هـ ، وهو العام الذي قدم فيه مجير الدين إلى حلب في خواصه ، فدخل على نور الدين مصالحاً له بعد حصار نور الدين لدمشق في أوائل تلك السنة . وقد أكرمه نور الدين وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ،ورجع إلى دمشق مسروراً سادس شعبان[1] .

وقد نظم ابن القيسراني نفسه قصيدة في هذه المناسبة حيّا فيها نور الدين،

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ .

وأشاد باللقاء بين دمشق وحلب ، ومن ذلك قوله :

شامت دمشق بك برق العلا فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى قد أشرق الأفق بايقادها
فيمّمتْ منك حيا مزنة بيض الأيادي ورد ورادها
فاسأل مجير الدين عن خبره أوردها محمود ايرادها
تبوّأت من عزّها قبة سمر القنا أطناب أوتادها

ويستطيع المرء أن يستخلص مما سبق ، أن لقاء ما بين الشاعر ومجير الدين قد تمّ في حلب سنة ٥٤٦ هـ في كنف نور الدين ، وأن توجه الشاعر إلى دمشق عام ٥٤٧ هـ ، لم يَعْدُ أن يكون دعوة من حاكم أصبح بمثابة التابع لنور الدين ، كما هو واضح من النص السابق الذي أورده ابن القلانسي .

على أن هناك ناحية أخرى في طبيعة العلاقة التي كانت قائمة ما بين نور الدين وابن القيسراني ، يلاحظها من يتتبع قصائد الشاعر في الأمير منذ التحاقه بخدمته . تلك هي ان ابن القيسراني قد حاول عن وعي وادراك ، أن يكون شاعر الأمير . وهذا يعني أن الشاعر أراد أن يكون « الناطق الرسمي » باسم نور الدين ، وذا المكانة الأولى بين الشعراء في بلاطه . ويمكن التدليل على ذلك بمجموعة من القرائن :

فبالاضافة إلى انقطاع ابن القيسراني إلى نور الدين ودولته منذ أن اتصل به عام ٥٤١ هـ ، وإلى قبيل وفاة الشاعر عام ٥٤٨ هـ ، يجد المتتبع لشعر الشاعر خلال هذه الفترة أنه يكاد يكون سجلاً وافياً للمعالم الكبرى في حياة نور الدين، وبخاصة ما ارتبط منها بوقائع نور الدين مع الفرنجة . وسوف نعرض في صفحات لاحقة بصورة تفصيلية لشعر ابن القيسراني المرتبط بوقائع نور الدين مع مراعاة التسلسل التاريخي ، حتى تستبين الرابطة ما بين شعر الشاعر وحروب أميره ، بصورة دقيقة محددة .

وفضلاً عن ذلك ، فقد حاول ابن القيسراني في شعره عن نور الدين

أن يرسم لنا معالم شخصية أميره ، وهي معالم تتسق كثيراً مع ما أورده المؤرخون العرب عن نور الدين ، ولا شك أن فترة الاتصال الطويلة ما بين الشاعر وأميره ، قد أتاحت لابن القيسراني فرصة التعرّف الوثيق الدقيق على الأمير ، وبالتالي مكنته من تصوير حياته ابان فترة الاتصال فيما بينهما تصويراً دقيقاً .

وممّا يتصل بالمكانة الخاصة التي كانت لابن القيسراني عند نور الدين ، عبارة أوردها صاحب الروضتين هذا نصها : « ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي .. إلى أن قدم العماد الكاتب الشام في سنة اثنتين وستين ، فتسلّم هذا الأمر ، وعبّر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً »[1] .

على أن بوسعنا أن نفترض أن ابن القيسراني كان أخفّ على قلب نور الدين من ابن منير ، لأنّ هذا الأخير كان ، كما يقول صاحب « الخريدة » « مغالياً متشيّعاً » ، في حين أن ابن القيسراني كان « سنياً متورّعاً »[2] . والمعروف أن نور الدين كان سنيّاً عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة[3] ولذا فإنه أظهر في حلب السنّة وقمع الرافضة[4] . ويقول ابن القلانسي في روايته لحوادث سنة ٥٤٣ هـ : « وفي رجب من هذه السنة ، ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك ، أمر بابطال « حيّ على خير العمل » في أواخر تأذين الغداة والتظاهر بسبّ الصحابة ، وأنكر ذلك انكاراً شديداً [5]. ولا شك في أن حركة بناء المدارس التي تعلّم مذهب السنة

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٣٥ .
٢ – الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ٧٧ .
٣ – انظر كتاب « الروضتين » ج١ ق١ ص ١٤ .
٤ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٠ .
٥ – ذيل تاريخ دمشق : ص ٣٠١ .

في حلب ودمشق[1] تمثل حماس نور الدين لمذهب السنة والجماعة ، وازوراره عن المذهب الشيعي ، مما يبيح لنا الافتراض أن ابن القيسراني كان أقرب من منافسه ابن منير إلى قلب نور الدين ، وبالتالي أقرب الشعراء الكبار إليه إذا كان هذان الشاعران يمثلان أشهر شعراء العصر ، كما توحي بذلك عبارة أبي شامة السابقة .

ولنا بعد ذلك كله أن نقول ، ان اتصال ابن القيسراني على هذه الشاكلة بأعظم شخصية اسلامية في عصره ، وأصلبها في مقارعة الصليبيين ، لا بدّ أن كان ذا قيمة خاصة في تصوير الصراع العنيف ما بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام .

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٠ .

رابعاً ، الاحتكاك المباشر مع الصليبيين :

ثمة ارتباط من نوع فريد بالوجود الصليبي في أرض الشام اختصّ به ابن القيسراني دون غيره من الشعراء في المنطقة . ذلك هو الاحتكاك المباشر مع الصليبيين المقيمين في الأرض الإسلامية المحتلة في شمال الشام . وقد ترك هذا الاحتكاك أصداء في نفس الشاعر ، سنعرض لها بشيء من التفصيل، عند استعراض المقطعات الشعرية الكثيرة التي روت قصة اللقاء ما بين الشاعر العربي المُجلّى عن وطنه . والجماعة التي أجلته واغتصبت أرضه وبلده .

وقصة هذا اللقاء أوجزها صاحب « الخريدة » فيما نقله عن الفقيه عبد الوهاب الدمشقي ببغداد سنة خمسين وخمسمائة هـ من أن ابن القيسراني دخل سنة أربعين وخمسمائة بلدة أنطاكية لحاجة عرضت له، فنظم مقطعات يشبّب فيها بافرنجيات[1] . ويعزز رواية العماد بعض التعليقات القصيرة التي وردت في مخطوطة ديوان الشاعر ، في التقدمة لعدد من المقطّعات التي نظمها خلال جولته في البلاد التي كان يحتلّها الصليبيون . ومن هذه التعليقات عبارة تقول : « وقال عند دخوله أنطاكية وممرّه بالعواصم ، يذكر مواضع استحسنها وهي « الثغريّات[2] . وعبارة : « ومن ذلك قوله بأشمونيثا ، وهي للفريريّة

---

١ – الخريدة : ج١ ص ٩٩ .

٢ – مخطوطة الديوان ص ٦١ .

والنصارى »[1] ، وعبارة : « ومن ذلك في دير سمعان ، وهو على فرسخين من أنطاكية ، لهم به اجتماع في عيد الصليب »[2] ، وعبارة : « ومن ذلك وقد اجتاز بعزاز من ضواحي حلب وهي مع الافرنج »[3] ، وعبارة : « ومن ذلك في مُولّدٍ من مولدي الافرنج أبصره » بياعوا « من بلاد الشمال »[4]، وعبارة : « ومن ذلك في كنيسة القسيان »[5] . هذا بالاضافة إلى مجموعة من الأسماء التي وردت في هذه المقطّعات لأماكن في حوزة الصليبيين .

وقد تكون التجربة وليدة رحلة عابرة ، لا يلبث الشاعر بعدها أن يعود إلى مستقرّه في حلب ، إلا أنها مع ذلك ، تمثّل لقاء مع الصليبيين من نوع غير ذاك الذي ألفناه من لقاءات ما بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، إذ كانت تلك لقاءات السلاح بالسلاح ، ولا تولّد إلا نوعاً واحداً من المشاعر ، هي مشاعر العداء والكره ، وما ينبثق عنها من أصداء وأقوال ، في حين أن هذا اللقاء كان على نحو آخر ، وكان صداه في شعر القيسراني من نوع آخر كذلك ، تجدر دراسته . ومن هنا كان تفرّد الشاعر بهذه التجربة يمثل حافزاً جديداً لدراسة شعره دون شعر الآخرين ، مذ كان الهدف ، تلمّس أثر الوجود الصليبي في هذا الشعر .

---

١ – المصدر نفسه ص ٧١ .
٢ – المصدر نفسه ص ٧٣ .
٣ – المصدر نفسه ص ٧٨ .
٤ – المصدر نفسه ص ٨٠ .
٥ – المصدر نفسه ص ٦٧ .

خامساً ، توافر شعره :

تلمسنا في الصفحات السابقة مجموعة من أسباب اختيارنا للشاعر ابن القيسراني ، دون غيره من شعراء الفترة ، لدراسة صدى الحروب الصليبية في شعره . وبقي أن نختم هذه الأسباب بسبب يستحق في أهميته غير هذا الترتيب ، ذلك هو توافر شعر ابن القيسراني ، أو جزء كبير منه على الأقل . إذ لولا وجود هذا الشعر ، لما كان لكل الأسباب السابقة قيمة حقيقية ، لأن المادة الشعرية نفسها هي التي تهمنا في الدرجة الأولى .

ولسنا نزعم أننا قد وضعنا أيدينا بالفعل على كل شعر ابن القيسراني مجموعاً في ديوان أو مجلّد واحد،على الرغم من أن هناك اشارات كثيرة في كتابات الأقدمين توحي بأن ديواناً كهذا كان موجوداً بالفعل في السابق . فها هو العماد الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ يقول : « ثم نظرت في ديوان ابن القيسراني ، فالحقت بما سبق ، ما وصل إلي من هذا النسق ، وجلوت بزهر سوائره الأفق ، وحليت بما راق ورق الورق »[١] . وهذه العبارة المسجوعة المتأنقة تكشف بوضوح عن اطلاع العماد على ديوان ابن القيسراني . ونستطيع أن نحدد تاريخ اطلاعه على الديوان بصورة تقريبية ، بأنه كان

---

١ – الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٢٦ .

بُعَيْد سنة ٥٦٢ هـ ، وهي السنة التي قدم العماد فيها إلى دمشق[١] ، واتصل بنور الدين . وبموفق الدين خالد ، ولد ابن القيسراني[٢] . ويذكر لنا العماد كذلك ، أن خالداً ولد الشاعر ، الذي أصبح صديقاً له بعد اتصاله بخدمة نور الدين « قد أتى في الانشاد على معظم شعر والده مذاكرة ، وكنت أشاطره زماني في التصافي مشاطرة »[٣] . وفي مكان آخر من الخريدة ، يروي العماد شعراً لابن القيسراني سمعه عام ٥٥٣ هـ من الفقيه علي الخيمي الواسطي بمدينة واسط ، وكان هذا قد سمع الشعر من فم الشاعر نفسه بمدينة حلب[٤] . ويروي العماد كذلك شعراً للقيسراني حكاه الفقيه عبد الوهاب الدمشقي ببغداد سنة ٥٥٠ هـ[٥] ، ويقول انه سمع من بعض أصدقائه من فقهاء الشام لابن القيسراني بيتين « ألطف من نسيم الصبا ، وأطرف من نعيم الصبا ، في وصف مغنّ ، وشادن شاد أغن »[٦] . وينقل عمّن يسميه « الواعظ الرحبي » أبياتاً من مجموعة قصائد غزلية[٧] ، ثم يقول : إنه وجد في كتاب « لمح الملح » لأبي المعالي الكتبي أبياتاً منسوبة إلى ابن القيسراني[٨] . ومن ناحية أخرى ، فإن أبا شامة المتوفي سنة ٦٦٥ هـ[٩] . نقل من ديوان ابن القيسراني مباشرة ، كما توحي بذلك هذه العبارة التي رددها غير ما مرّة ، حين كان ينقل شعراً لابن القيسراني : « وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني

---

١ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص ٢٣٥ .
٢ – انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٢٥ .
٣ – الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٢٦ .
٤ – المصدر نفسه ص ٩٧ .
٥ – المصدر نفسه ص ٩٩ .
٦ – المصدر نفسه ص ١١٩ .
٧ – المصدر نفسه ص ١٢٠ .
٨ – المصدر نفسه ص ١٢٣ .
٩ – انظر مقدمة كتاب « الروضتين » ص ٧ .

قصيدة في[1] ...

ويقول ابن خلكان : « وظفرت بديوانه ، وجميعه بخطه ، وأنا يومئذ بمدينة حلب ، ونقلت عنه أشياء حسنة رائعة »[2] .

ويقول سبط ابن الجوزي : « ان ديوانه مشهور »[3] ، بينما يردد ابن تغري بردي في القرن التاسع الهجري العبارة نفسها : « وله ديوان مشهور »[4]. ويشير حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » المتوفي سنة ١٠٦٧ هـ إلى ديوان ابن القيسراني فينقل عبارة ابن خلكان : « وظفرت بديوانه »[5] . وقبل هؤلاء جميعاً يقول ابن عساكر عن ابن القيسراني : « شاعر مكثر له ديوان حسن كبير »[6] . وهذه العبارة لها قيمة خاصة ، لأن صاحبها كان له لقاء شخصي مع الشاعر ، كما يتضح من عبارة ياقوت التالية : « وسمع منه (من ابن القيسراني) أبو سعيد السمعاني والحافظ ابن عساكر »[7] .

وبعد ، لقد وصل إلينا بالفعل ديوان لابن القيسراني ، ولكنه لا يمكن أن يكون هو الديوان نفسه الذي تحدث عنه ابن عساكر ، ووصفه بأنه ديوان كبير . فمخطوطة الديوان التي وصلت إلينا ، والمحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٨٤ أدب) تتكوّن من أربع وثمانين صفحة من القطع الصغير[8] . ومن الواضح أن ما احتوته من شعر ابن القيسراني لا يعدو أن يكون مختارات منه ليس إلا ، كما هو واضح من العبارة التالية المكتوبة

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٤،٤٤ على سبيل المثال .
٢ – وفيات الأعيان ج٤ ص ٨٢ .
٣ – مرآة الزمان ج ٨ ص ٢١٣ .
٤ – النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٢ .
٥ – كشف الظنون ط ١٩٤١ مجلد ١ عمود ٧٦٨ .
٦ – انظر رسالة الماجستير لفاروق جرار (على الآلة الكاتبة) ص ١٢٨ .
٧ – معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٤ .
٨ – لدى كاتب هذه السطور صورة فوتوغرافية عنها .

على الصفحة الأخيرة من المخطوطة : « هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر ابن صغير القيسراني من شعره ، رحمه الله ورضي عنه وعن ذريته ، وعفا عنهم أجمعين » . وبوسع المرء أن يدرك حتى دون وجود هذه العبارة ، أنّ مادة هذه المخطوطة لا يمكن أن تكون شاملة لجميع شعر ابن القيسراني إذ إنّ ما أورده أبو شامة في « الروضتين » ، والكثير مما أورده العماد الأصفهاني في « الخريدة » من شعره ، غير موجود في هذه المخطوطة . والأمر نفسه ينطبق على ما نقله ياقوت من شعر ابن القيسراني في « معجم الأدباء » وما نقله ابن خلكان في وفياته ، وابن الأثير في تاريخه « الكامل » .

والقارىء لديوان ابن القيسراني الآنف الذكر ، لا بدّ أن يلحظ الطابع العاطفي الوجداني الغالب على محتويات مخطوطة الديوان . وهذا يعني أن غالبية شعر ابن القيسراني ذي الأهمية التاريخية ، لا بد أن تلتمس في غير هذه المخطوطة ، ومن ذلك شعر ابن القيسراني في وقائع عماد الدين وولده نور الدين مع الصليبيين .

على أننا يمكن أن نكوّن صورة جيدة عن شعر ابن القيسراني ، إذا ما جمعنا إلى مادة المخطوطة المذكورة المادة الشعرية الموجودة في الكتب الأخرى التي ذكرت آنفاً . وعلى رأس هذه كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » قسم شعراء الشام للعماد الأصفهاني الكاتب ، وكتاب « الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لشهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة .

وهذا لا يعني أن المادة الشعرية المجموعة في هذه المصادر تستوعب شعر ابن القيسراني جملة ، إذ لا شك في أن شيئاً من هذا الشعر غير موجود في جميع هذه المصادر . ويكفي للتدليل على ذلك ، أن نذكر أن الخصومة الأدبية بين الشاعر ومنافسه ابن منير الطرابلسي لم يصلنا من آثارها إلا بيتان اثنان من الشعر . مع أنها كانت موضع حديث عند الكثيرين ممن كتبوا

عن الشاعرين ، حتّى لقد شبّهوا ما دار بينهما من آهاج ومعارضات بما كان يدور بين الفرزدق وجرير في هذا الباب[1] .

* * *

بقي أن نضيف إلى المظانّ المذكورة لشعر ابن القيسراني ورقات احتوت شيئاً من هذا الشعر ، موجودة في نهاية مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن تحت : British Museum. OR. ADD. 9656

ولدى كاتب هذه السطور صورة فوتوغرافية لستّ من ورقاتها ، وهي الورقات المحتوية على شيء من شعر ابن القيسراني ، وإحدى هذه الورقات مكررة ، ولم أجد فيها جميعاً ما يرتبط مباشرة مع نوع الشعر المقصود في هذه الدراسة .

---

١ – انظر حول ذلك « الخريدة » قسم شعراء الشام ج١ ص ٧٦ ، ص ٧٩ ، وكتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٨ ، ومعجم الأدباء (ط دار المأمون) ج ١٩ ص ٦٤،٦٥ ، ووفيات الأعيان (مطبوعات دار المأمون) ج٢ ص ٣٧،٣٨ ، ومرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤ ، وذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٢ ، وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٠ .